وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

من الأندلس إلى بيت المقدس

(الأندلسيون في فلسطين، وفي رحاب المسجد الأقصى)

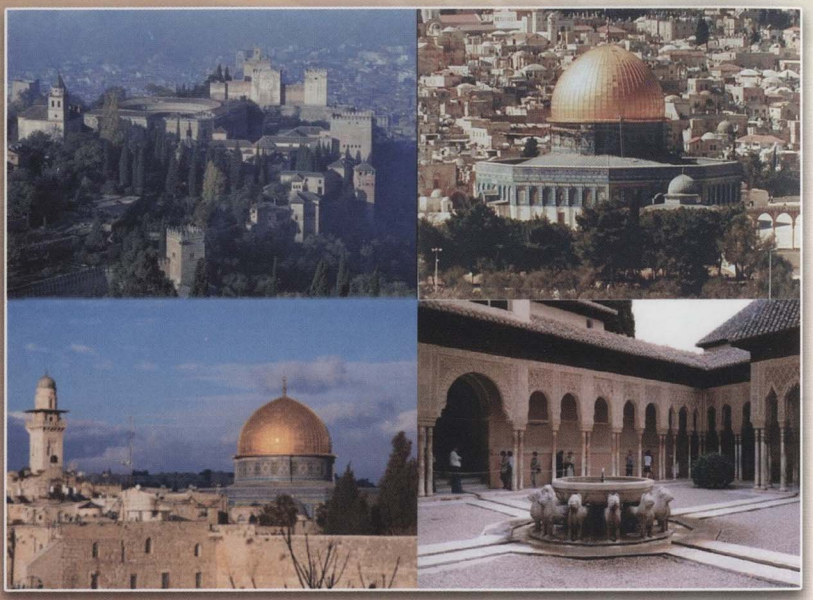

آفاق ثقافية

محمد رضوان الداية

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://al-maktabeh.com

من الأندلس
إلى بيت المقدس

رئيس مجلس الإدارة
رياض عصمت
وزير الثقافة

المشرف العام والمدير المسؤول
محمود عبد الواحد
المدير العام للهيئة العامة السورية للكتاب

رئيس التحرير
د. نهاد الجرد

محمد رضوان الداية

من الأندلس إلى بيت المقدس

(الأندلسيون في فلسطين، وفي رحاب المسجد الأقصى)

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١

آفـاق ثقافيـة

العـدد (٩٣)

كانون الثاني ٢٠١١

من الأندلس إلى بيت المقدس : الأندلسيون في فلسطين وفي رحاب المسجد الأقصى / محمد رضوان الدايـة.- دمشق: الهيئة العامة الـسورية للكتـاب، ٢٠١١ .- ٢٤٠ ص؛ ٢٠ سم.

(آفاق ثقافية ؛ العدد ٩٣)

١- ٣٠٣,٤ د ا ي م ٢- ٩٥٦,٤ د ا ي م
٣- العنوان ٤- الداية ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

الإهـداء

إلى قاضي الجماعة في الأندلس(*)

... قاضي القضاة في بيت المقدس:

أبي عبد الله محمد بن علي الأصبحي

الغرناطي المشهور بـــ ابن الأزرق

تخليداً:

- لسعيه في إنقاذ الأندلس

- وعيشه أيامه الأخيرة في

ظلال الصخرة والمسجد الأقصى...

محمد رضوان الداية

(*) كان قاضياً للجماعة في الأندلس في أعوامها الأخيرة، وعيّنه السلطان المملوكي قايتباي قاضياً للقضاة في الأقصى سنة ٨٩٦ وتوفي هناك محمود السّيرة والأثر: على حُبّه للأندلس والأقصى، قبل سقوط غرناطة بشهور قليلة: سنة ٨٩٦ (سقطت غرناطة سنة ٨٩٧هـــ ولله الأمر من قبل ومن بعد).

المدخـل

«- وكم أتمنى أنْ يثيرَ هذا الكتابُ بفكرتهِ ومادّته وفُصوله وروحه همِمَ الباحثين الغَيارى فيكتب كلّ في موقعه عن علاقة قطره - أو أيّ قطرٍ كان - بفلسطين: أرْضنا الحبيبة المُغتصبة لنؤكدَ الصلةَ التي ما انقطعَتْ، ولن تنقطعَ بإذن الله -» .

من رسالة الدكتور عبد الحكيم الأنيس

إلى المؤلف عن هذا الكتاب .

(١) تصدير

(٢) هذا الكتاب

(٣) إلى ثالث الحرمين الشريفين

http://al-maktabeh.com

(١)
تصدير

كنتُ عرضتُ هذا الكتاب في صورته الأولى على زميلين كريمين صديقين: **الأستاذ الشاعر إسماعيل محمود عبد الله**، وهو ابن فلسطين الذي وَضَع جزءاً كبيراً من شعره في خدمة قضيتها، العارف بأحوالها وأخبارها، المحبُّ لها؛ فأفدت من ملاحظاته وتساؤلاته، وتشجيعِهِ، وتأثرِهِ بما في الكتاب وما سَبَّبَ من تداعيات؛

والدكتور عبد الحكيم الأنيس: الباحث الأديب الشاعر، المدود اليد ببراعة إلى الصحافة الثقافية؛ وقد أتاح لي أن أنشر رسالة كتب بها إليّ بعد قراءته الكتاب، وهأنذا أضع تلك الرسالة بين يدي القارئ الكريم.

وللكتاب غاية؛ فإنه:

- إسهامٌ مني في إبقاء وعي الأمة على حال التوثّبِ الذي لا يهدأ.

- وتذكير القريب والبعيد بأن ما يجري الآن في فلسطين وغيرها من بلاد الشام، وسائر بلاد العرب والمسلمين قد مرّ مثله أو ما هو أشد منهُ؛ وأن الأمة تماسكت، وجمعت قواها واتصلت في معاركَ متواليةٍ؛ استمرتْ زماناً، نعم، ولكنها أثبتتْ حكم التاريخ الذي سيتكرر كلما غزا البلاد عدوٌّ أو اقتحمها طامع، أو ادعى فيها مُدَّعٍ.

- وتسجيل التفات قلوب العرب والمسلمين إلى القدس والأقصى والخليل وسائر بلاد فلسطين وما هو منها بسبب؛ وهو التفات يقتضي استمرار التحفز واستجماع القوى.

- وتبيانٌ لأن جزاءَ من دخل بلادنا بالخديعة والمكر والسلاح فأخذ منها، لا ينفع معه إلا التوحد، وردّ الخديعة بما هو أشد منها، وبإعداد القوة من أدنى درجاتها إلى أعلى درجاتها حتى يتم النصر الموعود.

- وإعلامٌ بأن التنكرَ للماضي في الجهاد هو عقوق وغباءٌ، وأنّ التفريط في الحاضر هو تخاذل وهوانٌ، وأن بيع المستقبل هو خيانة ومصادرة لحقوق الأبناء والأحفاد.

- وإيقانٌ بأن وعد الله تعالى بالنصر آتٍ قريبٌ.

نص الرسالة:

صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور محمد رضوان الداية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

فقد قرأت كتابكم النفيس «من الأندلس إلى بيت المقدس: الأندلسيون في فلسطين، وفي رحاب المسجد الأقصى».

وراقني فيه هذه الفكرة الهادفة العميقة، والمعلومات النافعة الموجهة التي قمتم باستخراجها من بطون الكتب، وجلوتموها رائعة رائقة، تبين عمق العلاقة بين أقطار الإسلام في سائر مراحل تاريخه.

إن في الأمة اليوم حاجة ماسة إلى مثل هذه الدراسات التي تكشف عن تاريخ مجيد، وتوظفه لصناعة غد مشرق، في وقت ترزح فيه الأمة تحت كوارث ونكبات من كل مكان.

وإذا ضاعت الأندلس فإننا نرجو أن لا تضيع فلسطين.

وإذا غفل المسلمون عن تاريخهم فنرجو أن يكون في هذا الكتاب وأمثاله ما يعيد إلى الذاكرة نضارتها وحيويتها.

وإذا اشتد البلاء على أقطار الإسلام فنرجو أن نجد في صفحاته ما يشحذ الهمم ويغلّب الأمل.

نحن أمة واحدة – على الرغم من كل المفرّقات والمعوّقات –، لها دين واحد، وتاريخ واحد – متنوع الألوان والأطياف، وهدف واحد، ومصير واحد.

وهذا الكتاب وأمثاله من الكتب الذكية الواعية أدلة مبصرة وبصائر دالة على ذلك.

وكم أتمنى أن يثير هذا الكتاب بفكرته ومادته وفصوله وروحه همم الباحثين الغيارى فيكتب كل في موقعه كل عن علاقة قطره – أو أي قطر كان– بفلسطين: أرضنا الحبيبة المغتصبة، لنؤكد الصلة التي ما انقطعت، ولن تنقطع بإذن الله.

رُبَّ جملة عابرة، أو كلمة موجزة، أو بيت شعر، أو سطر نثر، فتح من آفاق القول ما كان ارتياده صعباً، ومجاله مغلقاً.

شكر الله لكم هذا النَّفَس، وهذا الكتاب النفيس، ووفقكم للمزيد من العلم النافع الذي يمكث في الأرض.

عبد الحكيم الأنيس

دبي في

١٤٣١/٢/١٦هـ-٢٠١٠/٣/٢م

(٢)
هذا الكتاب..

كان تخصيص عام ٢٠٠٨م مناسبةً لاتخاذ دمشق عاصمة للثقافة العربية، وعام ٢٠٠٩م، مناسبة أخرى لتكون القدس عاصمة للثقافة العربية حافزاً لي لتقديم دراستين احتفاليتين تذكران دمشق، والقدس الشريف، وتربطان الكلام عليهما بالديار الأندلسية وأهلها وأعلامها، وتَرْصدان انسياحها في الزمان والمكان. أحد الكتابين هو «**التقاليد الشامية في الديّار الأندلسية**»[١] والثاني هذا الذي بين يديك...

ومثلما انتبهتُ طويلاً إلى الأثر البالغ الذي أثرته ديار الشام بكل ما كان فيها ومن كان فيها في بلاد الأندلس، مع الذين انتقلوا من الشام إلى أقصى الغرب، آخر إقليم إسلامي هناك؛ انتبهتُ أيضاً من خلال مطالعاتي في الآثار الأدبية والتاريخية

---

(١) صدر عن دار الفكر بدمشق ٢٠١٠.

http://www.al-maktabeh.com

المشرقية الأندلسية إلى الصلة الوثيقة بين الأندلس والأندلسيين – على امتداد التاريخ الأندلسي – وبين فلسطين عامة، والقدس، والمسجد الأقصى خاصة.

وفي المصادر المختلفة وخاصة في كتب التراجم والتواريخ والرحلات إشارات ومعلومات وإضاءات، وعلاقات، ومطالعات كافية لإقامة بحث يلقي الضوء على حيوية الصلة الأندلسية الفلسطينية، مع الانتباه الدائم إلى أننا نتحدث عن قطرين من أقطار دولة كبرى بالمعنى الحضاري والإسلامي والقيمي هي الدولة العربية الإسلامية، أو الإمبراطورية[1] كما تسمى أحياناً.

وكانت هذه الأصول والمصادر الأندلسية والمشرقية معاً تنتبه إلى خصوصية القدس والمسجد الأقصى، وسائر مدن فلسطين في قلوب الأندلسيين في حَلّهم وتَرحالهم، قاصدين إليها مباشرة أو عابرين لها بأسباب مختلفة .

وقد اخترتُ لهذا الكتاب، وهو لطيف الحجم محدود الإطار، بَنيْتُه على اللمحِ والإيجاز والاختصار عنوان:

---

(١) ساغ لبعض المؤرخين أن يسمّيها (إمبراطورية) لاتّساع رقعتها اتساعاً عظيماً في القارات الثلاث التي كانت تشكل العالم القديم آنذاك.

من الأندلس إلى بيت المقدس

(الأندلسيون في فلسطين وفي رحاب الأقصى)

فإن الأندلسيين أثّروا في المواقع التي زاروها أو استقرّوا فيها وتأثّروا أيضاً، وعلّموا وتعلّموا، وجاهدوا ودعوا إلى الجهاد في فلسطين حين أصابها الحيف والضيم من الغزاة الطغاة؛ وفي الأندلس حين التف الفرنجة عليها، وكوّنوا «كماشة»[1] طرفها الأول في المشرق وطرفها الآخر ينغرز في الأندلس. وكانت لتلك الزّيارات، والإقامات وألوان العلاقات الأخرى آثار تستحق الإشادة.

لقد استنطقتُ المصادر والمراجع، ولملمتُ أطراف الموضوع في عُنوانات صغيرةٍ، أَوْرَدْتُها على نسق مرتب مرسوم. كل ذلك على قدر الوُسع والطاقة، آملاً أن ينفتح قلب القارئ له، وأن يجد فيه ما يسر خاطره، ويلهب وجدانه، ويعيد إليه من ذكريات القطرين العزيزين مشاعر عالية غالية.

---

(١) الكماشة : كلّوب من حديد ذو كلابتين متواصلتين بمفصل، تنطبق على الشيء وتأخذه، قال الشيخ رضا (في متن اللغة) «وهو من (كمش) العاميّة، وصحّح استعمالها مجمع دار العلوم». قلت: وشاع استعمالها في عباراتٍ عسكريةٍ كثيراً لمعنى الإحاطة بالخصم من جهتين في آنٍ.

وقد جعلتُ الكتاب في مدخل، وأربعة فصول، وخاتمة، وآمل أن تقدم هذه الأقسام رؤيةً جيدةً للصلة الموصولة بين الأندلس وفلسطين والمسجد الأقصى خاصة، ومعالجةً حسنةً من خلال المصادر والمراجع التي كانت بين يدي، والتي بقيت من التراث العربي عامة، والتراث الأندلسي خاصة.

وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين

محمد رضوان الداية

دمشق المحروسة

١٤٣٠هـ -٢٠٠٩م

وتمّ في عجمان الزاهرة

١٤٣١هـ -٢٠١٠م

(٣)
إلى ثالث الحرمين الشّريفين

(١)

حين هدأت حركة الفتوح الإسلامية غرباً وشرقاً والتفتت الأمّة الجديدة إلى الاستبحار في صناعة الدولة، والاستقرار المؤدي إلى استيفاء عناصر الحضارة الشاملة كانت البلاد التي أطلق عليها الفاتحون اسم **الأندلس** قد صارت جزءاً متمّماً لهذه الدّولة الفتيّة، وكوّن الناس الذين يعيشون هناك مجتمعاً جديداً متكاملاً، تسودُ فيه اللغةُ العربية التي صارت اللغة الأولى لمكوّنات المجتمع الأندلسي كلّه، وصارت بعد قليل لغة العالم الأولى في الفكر والفنّ والثقافة والعلوم، وسائر مناشط الحياة.

وقبل نهاية القرن الهجريّ الأول **كان الخليفةُ الأموي يدير شؤون أكبر دولة في العالم القديم، ويرأس أمةً واحدةً، ودولةً**

عُظمى. واستمرت الأندلس إقليماً من أقاليم الدولة يديرهُ والٍ يُعَينه الخليفة من دمشق مباشرة، أو يعينه والي المغرب بتفويض من أمير المؤمنين بدمشق.

ولما قامت المسوّدة[1] العباسية بالانقلاب الدامي، وسفح العباسيّون ومدبّرو الانقلاب معهم دماء بني أمية ومواليهم: رجالهم ونسائهم وأطفالهم، واستطاع واحد فرد منهم (عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك ١١٣-١٧٢ هـ، ٧٣١-٧٨٨ ميلادية) أن ينجو ويدخل الأندلس، ويصبح حاكماً لها مرتضًى من الأندلسيّين، منفصلاً عن العبّاسيّين بالضرورة، صارت بلاد الأندلس كياناً مستقلاً من الناحية السّياسية، والعسكرية، ولكنّها بقيت كياناً موصولاً بأقاليم الأمة؛ وأرضاً إسلاميةً ممتدّة.

ومن خصائص هذه الدّولة العربيّة الإسلاميّة الممتدّة من أوربة الغربيّة إلى حدود الصين:

- أن فكرة الإمبراطورية - كما تسمى أحياناً - أو الدولة العظمى في العالم ظلّت قائمةً في المناطق العربيّة الإسلامية؛

---

(١) عُرِفوا بالمسوّدة لاتخاذهم السّواد شعاراً. وكان شعارُ بني أميّة البَياض.

http://al-maktabeh.com

- وأنّ مناطق الحكم الذاتي، أو شبه الذّاتي في مواطن كثيرة شرقاً وغرباً لم تُلغِ «الوحدة» التي اتّسمت بها الأمّة من جهةٍ، والدّولة المتمادية في المكان والزمان من جهة أخرى؛

- وأنّ هذا النّفوذ الحضاري الواسع أتاح لأبناء الأمّة القَبول والتقدير المناسبين خارج إطار الدولة وامتدادها الجغرافي والسّكاني. وتسجيلات الرّحالة المسلمين داخل الإمبراطورية وخارجها تؤكد هذا الملمح، ومثال ابن بطوطة في رحلته في القرن الثامن الهجريّ ظاهر واضح؛

- وأنّ العثور، مدةً بعد مدّة، على النّقود والأثريات العربية الإسلامية في أقاصي الأرض القديمة يقدم الدليل على ذلك النفوذ؛ كالنقود الأموية التي وُجِدت – من مدة قريبةٍ – في بعض البلاد الإسكندنافية؛

- وأنّ دواعي الحركة، في أرجاء الدولة – الإمبراطورية عامّةً – تُشبه دواعي الحركة في الدّول الكبيرة التي عرفها التّاريخ، مع زيادةٍ فيها فضلٌ كبير:

أ – **موسم الحجّ**، «والعمرة، والزّيارة، والتّقديس» الذي يدعو المسلمين من أنحاء الدنيا؛

ب– **الرّحلة المستمرّة** في طلب الرّواية، ولقاء العلماء مواجهةً، وأخذاً مباشراً عنهم في إطار حركة طلب العلم وبَذْله.

(٢)

ولفلسطين على الأقطار الأخرى(عدا المشاعر في الحجاز والمسجد النبويّ في المدينة) مزيّة خاصّة؛ وهي مزيّةٌ ترجعُ إلى ما أكرم به الله تعالي المسجدَ الأقصى وما حوله في نصّ الكتاب الكريم، وإلى ما ثبتَ عن رسول الله (ﷺ) من أنّ شدّ الرحالِ (العَزم الدّيني القاصد إلى مكان معيّن في الدّنيا) لا يكون إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجدِ الحَرام، والمسجدِ النبويّ، والمسجدِ الأقصى.

والوثيقة العمرية التي أصدرها أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب (رضي الله عنه) طَبَعَتْها مدينةُ القدس بطابعٍ خاصّ، وثبتت لها في ظل الحكم الإسلامي مكانتُها الدينيّة والتاريخيّة، معزّزةً بالمباني الإسلاميّة، في المسجد الأقصى، والصّخرة المشرّفة وسائر مواضع القدس.

وفلسطين ركن أساسيّ من أركان بلاد الشام، أو الديار الشامية التي وردت فيها الأحاديث النبويّة، والتي لها الفضائل والمكارم المذكورة في الآيات والآثار.

وهي من موقعها المتوسط من البلاد العربية والإسلامية: على طريق الحجّاج والزوّار والتجّار، والرحّالة، وسائر الذين يتحركون لأغراضٍ شتّى بين الأقطار العربية والإسلامية.

ولم يتخلف المسلمون عن زيارة بيت المقدس، وعن قصد المَسجِد الأَقصى إلا عند الضرورات التي لا حيلة معها مثل مدّة اشتداد حروب الفرنجة، التي سمّوها هم الحروب الصليبيّة، وبعد احتلال القدس من العدو الصّهيوني اليهوديّ سنة ١٣٨٧هـ تقابل (١٩٦٧م).

وما تزال نفوس الناس معلّقة بالمسجد الأقصى وما حوله، وستبقى كذلك، حيث تُطيف البركةُ، وحيثُ تهفُو النفوس وتلتفتُ القلوب، وتَرْنو الأبصارُ، وسائر الجوارح؛ وحيثُ ينتظر العربُ والمسلمون فكّ أَسْرِهِ، وطرد غاصبِه، وتطهير قدسه، ويعملون لذلك. ووعد الله حق.

الفَصْلُ الأَوّلُ

بيت المقدس في وجدان الأمة

عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال:
قال رسول (ﷺ):

«لا تزال طائفةٌ من أمتي على الحق ظاهرين لعدوّهم قاهرين، لا يضرّهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله، وهم كذلك قالوا يا رسول الله: وأين هم؟ قال: ببيت المقدس، وأكناف بيت المقدس»[1].

---

(١) الحديث في: تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله (ﷺ) من الأخبار ٢: ٨٢٣، تحقيق محمود محمد شاكر، وفيه: إسناده صحيح.

http://al-maktabeh.com

(١) القدس مدينة عربية

(٢) قبل فتح بيت المقدس

(٣) القدس والإسلام

(٤) العربُ في فلسطين

(٥) من قُرطبة إلى القُدس

(٦) حَركةٌ حيَويّةٌ بين القطرين:

الأَندلسي والفلسطيني

(٧) استِهداف مشْترَك.... ووجْدان واحِد

(٨) حارة المغاربة في القُدس وزاوية المغاربة في الخليل

(١)
القدس مدينة عربية

القدس مدينة عربيّة[١]. بناها اليبوسيّون نحو سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد، وهم من العرب الأوائل من صميم الجزيرة العربية، هاجروا منها واستقروا في منطقة القدس وتلك الديار وبنوا مدينتهم. فتركوا حياة البداوة ولزموا الأرض وصاروا قوّة يُحسب حسابها، وسموا عاصمتهم (يبوس). وأهل يبوس وما حولها من أصل كنعاني، ولغتهم الأصلية: الكنعانية. وكان ملكيصادق هو أول ملوكهم - على الأرجح - وأُطلق عليه ملك السلام، ومنها جاء اسم المدينة: سالم (أو: شالم). ومرّ عليهم زمان كانوا يعبدون الأصنام، وصنمهم الأكبر (بعل) ومعناه: الربّ.

وتقلّبت القدس مع العصور في مقاومة ومصارعة ومصابرة. ومرّ بها المصريّون(الفراعنة) واليَهُود، وآشُور، والفُرس، واليونان، والرومان، والبيزنطيون، وكان آخرهم - من

---

(١) أصول هذه الفقرة من كتاب عارف باشا العارف: تاريخ القدس.

هؤلاء البيزنطيّين -: هرقل. ولكن يبوس (أورسالم) القُدس ظلّت على انتمائها العربي، وارتباطها بجذورها، وارتقابها لصلة الوصل من الجذور وذوي الرحم. قال عارف باشا العارف[1] «وليس بمستغرب أن يفكر المسلمون في فتح بيت المقدس، وهو البيت الذي ورد ذكره في القرآن الكريم وعلى لسان محمد (ﷺ)، وفي أحاديث رسول الله، وأئمة الإسلام وأعلامهم...».

---

(١) تاريخ القدس: ٤٣.

(٢)
قبل الفتح الإسلامي لبيت المقدس

حين اعتلى هرقل عرش دولة الرّوم (الإمبراطورية البيزنطيّة) سنة ٦١٠ كانت في الغاية من الضعف والانحلال حتى إن كسرى وصل بجيوشه إلى بلده خلقيدونية أمام القسطنطينية، بعد أن احتل بلاد الشام، ودخل القدس سنة ٦١٤ وهَدم الكنائس. واستطاع هرقل أن يستجمع قوى جيشه وشعبه ويردّ على هجمة الفُرس ويستردّ القُدس سنة ٦٢٩ ويدخلها حافياً ويصنع للإمبراطورية مجداً جديداً.

وهرقل هو الإمبراطور[١]: Heraclius (٥٧٥-٦٤١) حكم إمبراطورية الروم من ٦١٠ هـ إلى ٦٤١ هـ، وقاتل الفرس وهزمهم (٦٢٢-٦٢٧).

---

(١) موسوعة المورد ٥: ٩٥.

ولهذا الحدث صدىً ذو أَثر وأهميّة في حياة المسلمين في فجر الإسلام؛ فإنّ هزيمة الفرس للرّوم سرّت المشركين فإنهم مثلهم أهل أَوثان، ولما نزلـــت: ﴿**الم* غُلِبَتِ الرُّوُم في الأَرضِ وَهُم مِن بَعدِ غَلَبِهِم سيَغلِبُون* في بِضعِ سِنين لِلَّهِ الأَمرُ مِن قَبلُ وَمِن بَعدُ وَيَومَئِذٍ يَفرَحُ المُؤمِنُونَ***﴾ [الروم١-٤] راهن أبو بكر (ﷺ) المشركين على أن الروم سيغلبون الفرس في بضع سنين (بين الثلاث والتسع من السنين).

وكانت هزيمة الفُرس للرّوم أيام كسرى أبرويز آخر انتصارات لهم. وساء خبر انتصار الفرس رسول الله (ﷺ). وفي أسباب النّزول أَنّ أوّل سورة الرّوم نَزل بهذه المناسبة[1]. فقد كانت قريش تحب ظهورَ فارس[2] لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمانٍ ببعث. فلمّا أنزل الله تعالى هذه الآية (من سورة الروم) خرج أبو بكر الصديق (ﷺ) يصيح في نواحي مكة (الـــم، غُلبت الروم..)، وكان أبو بكر (ﷺ) قد راهن المشركين[3] (ومثّلهم في الرهان أمية ابن خلف) على وقت معلوم لتحقق ما نزل في القرآن الكريم،

---

(١) تفسير القرطبي ١٤: ١-٤.

(٢) أي: انتصارها وتغلّبها على الرّوم.

(٣) قبل أن يحرّم الرّهان في الإسلام.

http://al-maktabeh.com

وظهرت الرّوم على الفُرس(غَلبت) يوم الحديبية على رأس تسعِ سنين من المراهنة[1].

ونقل القرطبي في تفسيره:[2] وجاء الخبر بغلبة الروم للفرس يوم الحديبية ففرحَ رسول الله (ﷺ) ومن مَعَهُ من المُسلمين.

وكان هرقل قد تبنّى رأياً في طبيعة السّيّد المسيح قال بها بطريرك القُسطنطينية سرجيوس الأول (رُسمَ بطريركاً ٦١٠ إلى ٦٣٨ سنة وفاته) فقد كان يقول – بحسب اعتقاده – إن طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية على الرّغم من تميّزهما في شخصه ليس لهما غير مشيئة واحدة أو إرادة واحدة، وكان أخْذُ هرقل بهذا الرأي سنة ٦٢٢م. وتسمّى هذه النظرية بالإنجليزية: (monothelitism).

وبينما كان هرقل في هذه الحال من الانتصار على الفرس، ومن التدخّل في قضايا دينية في مملكته وصلت إليه رسالةُ النبي(ﷺ).

وقد حمل دِحْيَة الكَلْبيّ (رضي الله عنه) رسالة رسول الله (ﷺ) إلى هرقل، ورُوِيَ أنّ هرقل كان في حمْص وقْتها، فلم يعبأ

---

(١) وقبض أبو بكر الرهان من ورثة أبي بن خلف (الذي قتل في معركة بدر، وأمر النبي (ﷺ) أبا بكر فتصدق بما كسب من الرهان).

(٢) تفسير القرطبي ١٤:٤.

بالرّسالة، ولكنه لم يمزّقها كما مزّق كسرى الرسالة المُرسلة إليه، ولم يُسْلِم كما أسلم غيرُه.

ونقرأ في تاريخ الطبري[1] ما نصّه:

«كان هرقل كلما حجّ بيت المقدس فخلّف سورية وظعَنَ في أرض الروم التفت فقال: عليك السلام يا سورية تسليم مودّع لم يقض منك وطره، وهو عائد. فلما فتح المسلمون الشام (سورية الكبرى بلغة اليوم) التفت وهو يغادر ونظر إلى سورية وقال: عليك السلام يا سورية سلاماً لا اجتماع بعده ولا يعودُ روميّ إليك إلا خائفاً... إلخ».

«على أن المسلمين لم ينسوا القُدْسَ حتى أَذِنَ الله تعالى لعمر بن الخطاب أن يفتحها، وكان ذلك سنة ٦٣٦»[2].

وكان المسلمون، وما يزال الإسلام في المدة المكية، قبل الهجرة قد التَقَتْ قلوبهم حول بيت المقدس، الذي أُسْرِي برسول الله (ﷺ) إليه، وكان منه عروجه إلى السماوات[3]. وإنما سمّي: المسجد الأقصى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام؛ وكان أبْعد مسجد على أهل مكة في الأرض يُعَظّم بالزيارة.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣:٦٠٣.

(٢) قدسنا: ٥١.

(٣) كان الإسراء في السنة العاشرة من البعثة بعد موت السيدة خديجة – رضي الله عنها – وأبي طالب عم رسول الله (ﷺ).

(٣)

القدس والإسلام

(القدس: والمعاني الدينيّة .. الإسلاميّة)

للقدس والمسجد الأقصى، ولهذه الديار الكريمة ذكر صحيح في القرآن الكريم، والحديث الشريف؛

وقد كانت القدسُ قبلة المسلمين الأولى، فقد توجّهوا في صلواتهم، إلى المسجد الأقصى؛ توكيداً لصلة أديان الله تعالى إلى الناس بعضها ببعضها الآخر، وتوكيداً لهيمنة الإسلام على ما قبله من الرسالات ونسخه لها، وتبياناً لأن الدين عند الله الإسلام؛ فلما تمت هذه المعاني، وما يتصل بها كان التحويل إلى الكعبة المشرّفة، كما نقرأ في سورة البقرة (١٤٤): ﴿**قَد نَرَى تَقَلُّبَ وَجهِكَ في السَّمَاءِ فَلَنُوَلّيَنَّكَ قِبلَةً تَرْضَهَا فَوَلِّ وَجهَكَ شَطرَ المَسجِدِ الحَرَامِ وَحَيثُ ما كُنتُم فَوَلُّواْ**

وُجُوهَكُم شَطرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُتُواْ الكِتَبَ لَيَعلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِهِم وَمَا اللّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعمَلُونَ*﴾ [البقرة ١٤٤].

قال القرطبي وهو يفسر الآيات الكريمة من سورة البقرة[١].

«وخرّج البخاري عن البراء، أنّ النبيّ (ﷺ) قد صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً».

- وفيه، في سياق كلام طويل: «وقيل نزل ذلك على النّبيّ (ﷺ) في مسجد بني سَلَمة وهو في صلاة الظهر بعد ركعتين منها فتحوّل في الصلاة فسمّي ذلك المسجد: **مسجد القبلتين..**»[٢].

وورد ذكر المسجد الأقصى في سورة الإسراء: ﴿سُبحَنَ الَّذِي أَسرَى بِعَبدِهِ لَيلاً مِنَ المَسجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسجِدِ الأَقصَا الَّذِي بَرَكنَا حَولَهُ لِنُرِيه مِن أَيَتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ*﴾ (الإسراء: ١).

قال القرطبي[٣]: ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث، وروي عن الصحابة في كل أقطار الإسلام فهو من المتواتر بهذا الوجه.... روى الصحيح عن أنس بن مالك أنّ رسول الله (ﷺ)، قال «أُتِيتُ بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون

---

(١) تفسير القرطبي ٢ : ١٤٨.

(٢) تفسير القرطبي ٢ : ١٤٩.

(٣) تفسير القرطبي ١٠: ٢٠٦.

البغل يضع حافره عند منتهى طرفه، قال، فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال، فربطته بالحلقة التي يَرْبِطُ بها الأنبياء[1]، قال، ثم دخلت المسجد فصلّيت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل (عليه السلام) بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل: اخْتَرْتَ الفطرة، قال: ثم عرج بنا إلى السماء،...» وذكر الحديث. وساق القرطبي حديثاً برواية أخرى، مطوّلاً..

وفي تفسير القرطبي، في استرسال شرحه وبسطه لمقاصد الآيات الكريمة:

«قوله تعالى: (إلى المسجد الأقصى) سمّي الأقصى لبُعْدِ ما بينه وبين المسجد الحرام، وكان أبعد مسجدٍ عن أهل مكة في الأرض يُعَظّمُ بالزيارة، ثم قال: (الذي باركنا حوله) قيل: بالثمار وبمجاري الأنهار، وقيل بمن دُفِنَ حوله من الأنبياء والصالحين؛ وبهذا جعله مقدّساً. وروى معاذ بن جبل عن النبي (ﷺ) أنه قال: يقول الله تعالى «يا شام أنت صفوتي من بلادي، وأنا سائق إليك صُفوتي من عبادي».﴿لِنُرِيهُ مِنْ آيَاتِنا﴾ هذا من باب تلوين الخطاب.. والآيات التي أراهُ الله من العَجائبِ التي أَخْبَر بها الناس، وإسراؤه من مكة إلى المسجد الأقصى في ليلةٍ وهو

---

(١) في خبر آخر: وهو البُرَاقُ الذي كانت الأنبياءُ تركبه.... ثم أتيت بيت المقدس الأقصى فنزلتُ عن الدابّة، فأوثقتُه في الحلقة التي كانت الأنبياء تُوثِقُ بها، ثم دخلتُ المسجد..... (القرطبي ١٠: ٢٠٦).

مسيرةُ شهر، وعروجه إلى السّماء، ووصْفه الأنبياءَ واحداً واحداً حسب ما ثبت في صحيح مُسلم وغيره.

وفي حديث رسول الله (ﷺ) عن أبي هريرة(رضي الله عنه) قال:

«لا تُشَدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى».

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ):

«لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لعَدُوّهم قاهرين؛ لا يَضُرّهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء[1] حتى يأتيهم أمر الله، وهم كذلك، قالوا يا رسول الله: وأين هم؟ قال ببيت المقدس، وأكناف بيتِ المقدس[2]».

وعن ميمونة مولاة النبي (ﷺ) قالت: يا رسول الله أَفْتِنَا في بَيْتِ المقدس قال: «أرضُ المحشَر والمنْشَر ائتُوه فَصَلّوا فيه؛ فإنّ صلاة فيه كألفِ صلاةً في غيره. قلت: أرأيت إن لم أَستطع أن أتحمّل إليه، قال فَتُهْدي له زَيْتَاً يُسرّجُ فيه، فمنْ فَعَل ذلك فهو كمن أَتاه».

---

(١) اللأواء: الشدةُ وضيق العيش. وفي معاني اللأواء القحط، وتقال في العلة.

(٢) أكناف جمع كنف، وهو الجانب والناحية. وأكناف الجبل والوادي: نواحيه حيث تنضم إليه.

وعن أبي ذرّ (ﷺ) قال: قلت يا رسول الله أيّ مسجد وُضِعَ أوّل؟ قال: المسجد الحرام قلت: ثم أيّ؟ قال ثم المسجد الأقصى؟ قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون، ثم قال: «حيثما أدركَتكَ الصّلاةُ، فَصَلّ، والأرضُ لك مسجد».

(٤)
العرب في فلسطين

كانت القدس، هي المدينة الوحيدة التي سار عِمر بن الخطاب (ﷺ) وهو خليفة المسلمين لافتتاحها وردها من الروم، وتسلّمها من صَفْرُونيوس بطريرك المدينة آنذاك.

وقد أصْدَرَ **العُهْدَةَ العُمَريّة** التي تنظّم العلاقات وتوضح الحقوق والواجبات، واهتمّ بموضع الصّخرة، والأقصى[1]. وفي القدس أقيم المسجد المعروف بمسجد عمر. وأرسل عمر (ﷺ) إلى فلسطين بعثةً من العلماء منهم: معاذ بن جبل وعبد الرّحمن بن غنم، وعُبادة بن الصّامت الذي كان أوّل القُضاة في بيت المقدس. وبقيت فلسطينُ والقدس محطّ اهتمام سائر الخلفاء الرّاشدين رضوان الله تعالى عليهم.

---

(١) العهدة العمريّة (وثيقة تاريخية ذات أهمية مستمرة إلى اليوم)، وهي في كتب التاريخ العربيّ. انظر مثلاً تاريخ الطبري ج٣ ص٦٠٩-٦١٠.

وتمتعت بلاد الشام، ومنها فلسطين بخصائص وامتيازات عديدة خلال العصر الأمويّ، وردّ الدكتور فاروق عمر[1] جذور ذلك إلى ارتباط بلاد الشام بالأُمويّين قبل الإسلام وبعده. فقبل الإسلام كان بنو أمية يتاجرون مع بلاد الشام تجارةً رابحة كوّنت لهم صلاتٍ وثيقةً، وبعد الإسلام اشتركت شخصيّات أمويّة عديدةٌ فيها. وبعد مُدّة قصيرةٍ من «تحرير الشام» من أيدي الرّوم (البيزنطيين) أصبح معاوية بن أبي سفيان (ﷺ) والياً على الشام ثم صار خليفةً سنة ٤١ بعد عام الجماعة[2]، واستمر يحكم من دمشق.

قُسمت الشام إلى أربعة أجناد: جند دمشق، وجُند حمص، وجُند الأردن، وجُند فلسطين، ثم فُصِلَ جُند قنّسرين عن جند حمص. والذي استقر في فلسطين: لخم وجُذام، وكنانة، وقيس،

---

(١) تاريخ فلسطين السّياسي في العصور الإسلامية.

(٢) عام ٤١ هجرية، حين تمّ الاتفاق بين الحسن رضي الله عنه ومعاوية (ﷺ) على نبذ الخلاف، والصّلح بين الفئتين، وتسلم معاوية الخلافة وكان في ذلك تصديق لما أخبر به رسول الله (ﷺ) من أن الحسن (ﷺ) سيصلح بين فئتين من الأمة الإسلامية. قال عمر ابن العاص (ﷺ): «سمعت أبا بكرة يقول: رأيت رسول الله (ﷺ)على المنبر، والحسن بن علي إلى جنبه، وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى»، ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» رواه البخاري.

وعاملة وبَلْقَيْن. «ويلاحظ أن خريطة توزيع القبائل في بلاد الشام لم تتغيّر كثيراً في الإسلام عما كان عليه قبل الإسلام، وأنّ اليمانية ظلّوا العُنْصر الغالب في بلاد الشام... فقد كان في قنسرين: تنوخ وتغلب وكلاب وبعض من طيّء وسليم، وكان في حمص قضاعة وكندة وطيّء وتنوخ وحمير وكلب (وأقلّية من قيس) وفي الأُردن قضاعة (كلب) وهمدان وغسان ومذحج وخثعم»....

وقد شحن معاوية بن أبي سفيان المناطق الداخلية والسواحل من فلسطين وسائر الشام بالقبائل الوافدة، وأقطعهم الأراضي التي لا يمتلكها أحد، ونصحهم بالزّراعة وتربية المواشي (ليضمن استقرارهم، وإسهامهم في الحياة الاقتصادية)... وتمتعت القبائل العربية في بلاد الشام بامتيازاتٍ سياسية واقتصادية في ظل الأمويين «الذي فضّلوا مصالحَ أهل الشّام على غيرهم إذا اقتضت الضرورة.. »[1].

ونزل عدد من بني أمية في بلدات فلسطينية وشامية، فأبو سفيان نزل في قرية (بقنس) من قرى البلقاء، ومعاوية في البطنان من كورة عسقلان، ومروان بن الحكم كان يشتو في الوتيرة بجانب بحيرة طبرية، وفيها أخذ البيعة لابنه عبد الملك، وعبد العزيز،

---

(١) تاريخ فلسطين السّياسّي: ٧١.

http://al-maktabeh.com

ونزل خالد بن يزيد عمواس من جند فلسطين، وبنى هشام بن عبد الملك قصراً في المفجر من الغور عُرف بقصر هشام، وبنى قصراً آخر عُرِفَ بمُنية الشّام في أرض طبرية، ونزل سويد بن عبد الملك في بئر السبع، ونزل عبد الرحمن بن سليمان بن عبد العزيز عسقلان، ومحمد بن مروان ريسون...

وكان معاوية (ﷺ) وابنه يزيد يُحبّان الإقامة إلى جانب طبريّة، وينسب إلى الوليد بن عبد الملك بناء قصر المَشْتى قرب البحر الميّت، واشترى عبد الملك (عَمْوَاس) من فلسطين، وبني سُليمان بن عبد الملك الرّملَة بفلسطين ومصّرها حين كان والياً على فِلسطين.[1]

ونبّه الدكتور فاروق عمر على أهمية فلسطين في نظر الأمويّين وقال: أبلى كل من يزيد، ومعاوية ابْنَي أبي سفيان بن حرب بلاءً حسناً في فتح فلسطين إلى جانب غيرهم من الأمويّين حتى قيل: «**ما فُتحت بفلسطين كُوْرة إلا وُجِدَ عندها رجل أمويّ ميّتاً**».. وبسبب أهمية هذه الديار الدينية والتاريخيّة: اختارها معاوية (ﷺ)مكاناً للمناداة به خليفةً؛ وهو الذي رمّم سورها واعتنى ببساتينها وغاباتها.. قال: لقد استطاع معاوية بن أبي سفيان والياً وخليفةً أن يوازن بين القبائل لما عُرف عنه من

---

(١) المرجع السابق: ٧٢- ٧٣.

اللباقة السياسية التي عبّر عنها بقوله: لو كان بيني وبين الناس شعرةٌ ما انقطعت..... ثمّ إن معاوية (ﷺ) بنى دار الصناعة بعكّا بفلسطين... وكانت مدن فلسطين وأجنادها في مناصرة بني أُمية ضدّ خصومهم[1]. **وفكر سليمان بن عبد الملك في اتخاذ بيت المقدس عاصمة للدولة العربية الإسلامية الأموية**[2]، وهذا التفكير ينسجم مع هذا الاهتمام الأموي بفلسطين عامة والقدس والأقصى خاصة.

واهتم الأمويون بالقدس والأقصى والصخرة وسائر المعالم والآثار، وبنوا المساجد، والمرافق العامّة، واختار عدد منهم فلسطين لمبايعة الناس لهم ومناصرتهم كما سَبق.

فقد أمَر عبد الملك بن مروان ببناء مسجد قبة الصّخرة والمسجد الأقصى، وهُما من أعظم آثار الأمويّين في فلسطين. والمسجد الأقصى القائم بالقرب من مسجد قُبّة الصّخرة أكبر منه وأوسع، حتى إنّ الثاني صار كالمَزارِ بالقياس إلى الأوّل: الأقصى.

وكان عبد الملك قد بعثَ إلى المُسلمين في البُلدان المختلفة يسألُهم عن رأيهم في عَزْمِه على بناء قُبّةٍ على الصخرة وأنْ

---

(١) المرجع السابق: ٧٤.

(٢) البداية والنهاية ٩:١٧٤.

يبني المسجد؛ فوردت عليه الكُتب من الأمصار بالمُوافقة التّامة على ما نوى من بناء قبّته وصخرتهِ ومسجِده، وأن يجريَ ذلك على يديه.

وعبّد عبْدُ الملك الطّرق الرئيسيّة بين شمال الشام والقدس من أجل تسهيل سُبل زيارة هذين المسجدَيْنِ. وأصلّح ما أفسده هجوم الرّوم على بعْض المُدن السّاحلية منتهزين مدّة اعتزال معاوية الثّاني الخلافة، وشُغور مركز الخلافة مدّةً من الزّمن، فأعاد بناءَ عسقَلان ورَمّم ما دُمّر في عكّا وقيسارية.

وتقلّب على القُدس، وسائر فلسطين الولاة المختلفون الذّين يأتون من الدول أو الإدارات التي تُسيطر وتحكم[1]. وكانت أعظم الآثار في خدمة القدس وعمارتها وبنائها وتسهيل الوصول إليها والعناية بشؤونها المختلفة في **زمن بني أميّة**. وحين أراد أبو جعفر المنصور إصلاح المسجد الأقصى بعد الزلزال الشديد الذي كان سنة ٧٤٧م أمر بنزع صفائح الذهب والفضة التي على الأبواب من العصر الأموي وضربت دنانير ودراهم وأنفقت على إصلاح الأقصى! وتوالى من حكام الدويلات أثناء العصر العباسي على فلسطين والقدس: الطولونيون، والإخشيديّون، والعُبيديّون، فالأتراك السّلاجقة، فالأرتقيّون.

---

(١) تاريخ القدس: ٥٤.

وطرأ على فلسطين والشّام وغيرهما الفرنجة الصليبيّون. وقد شوّهوا كثيراً من المعالم، وتمّ الاستعداد لهم من: الزنكيين، ثم الأيوبيين، ورأسهم صلاح الدين الذي فتح القُدس سنة ٥٨٣ وبدأ العدّ التنازلي لطرد الفرنجة الذي تمّ على أيدي المماليك. ثم جاء بعد المماليك العثمانيون.

وقد كثرت رحلات الأندلسيّين، ومجاورتهم واستقرارهم أحياناً في القدس وغيرها من بلاد فلسطين في زمن العبيديّين ومن جاء بعدهم في مصر والشّام.

(٥)
من قرطبة إلى القُدس...

(١)

الكلام على العلاقة المتينة، ذات المزايا بين الأندلس، وفلسطين عامّة، والقُدس والأقصى خاصّة، هو كلامٌ يكتسبُ أهميّته:

- من الصّلات التّاريخيّة الضّاربة في العُمق؛
- ومن المَلامح الدّينيّة التي يتصدّرها موضوع الإسراء والمعراج؛
- ومن التّعاطف بين القُطرين العربيّين الإسلاميّين في أحوالهما: في الرّخاءِ من جهةٍ، وفي الشِدّة من جهةٍ أخرى.

وقد تعرضت فلسطين خاصة، وبلاد الشام ومصر عامّةً لحملات صليبيّة شنيعة الهدف والأثر والتّدمير، وتعرّضت الأندلسُ لحملاتٍ أُخرى مماثلة ومُشابهة ومتوافقةٍ في الزمن والشدّة وبالغ الأثر على البلاد الأندلسية. وكانت النظرة

http://al-maktabeh.com

الأوروبيّة الاستعماريةُ مشبَعة بالكراهية والحِقد، وموصوفةً بالجهل والدّجَل.

ومن هنا التَفتَ المشارقةُ إلى المَغاربة والأندلسيين استنجاداً بهم (وخاصّة أيّام صلاح الدّين مع نهضة السلاح البحري للمُوحدين حكّام المغرب والأندلس)[1]، كما التفت الأندلسيون في مرحلةٍ من التاريخ إلى المشرق للثبات أمام العدوّ الشرس، وخاصةً أيّام دولة بني الأحمر: أو: مملكة غرناطة حين كان المماليك يحكمون المشرق.

والأمر كلّه منطلقٌ من أنّ الأمّة واحدة، وأنّها كالجَسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحُمّى؛ وأنّ هذا التّعاطف والتّلاقي وطلبَ المساعدة إنّما هو في إطَار الأسرة الواحدة والبيت الواحد الذي امتدّت مساحَتُه، وتباعَدت أطرافُه.

(٢)

وقد اتّصل وُجدان أهل الأندلس الذين تشكّلت شخصيتهم واكتملت ملامح أندلسيتهم في ظلال دولة عبد الرحمن الداخل الأموية وأولاده وأحفاده من بعده، بهذه الدّولة في المشرق منذ أيام الأندلس الأولى. **فقد ثبت في التواريخ المتداولة في المشرق والمغرب والأندلس أثر الأمويّين في القدس خاصة وفي فلسطين**

---

(١) لنا عودة إلى هذا الموضوع في الفقرة الأخيرة من هذا الفصل.

عامّة. وأذكر هنا فقرةً للحاجّ المُدَجّن الأندلسيّ، أَوْرَدَهَا بعد دخوله مدينة دمشق صادراً عن أرض فلسطين، **واصلاً بين بني أمية والقُدس خاصة**، فقد قال [1]:

«ومدينة دمشق دار دولة بني أمية المروانية، ومعاوية بن أبي سفيان كاتب الوحي ورديف رسول الله (ﷺ): ملكوا من مدينة دمشق الشام مشارق الأرض ومغاربها مدّة ألف شهر، وتداولها منهم أربعة عشر رجلاً أوّلهم مُعاوية، وصالِحُهم عمر بن عبد العزيز[2]، وآخرهم (مروان) الحمار[3]. **ودولة بني أمية دولةٌ سعيدةٌ:** بنوا المساجد، وفتحوا البلاد، وطوّعوا العباد، وأحبّوا السّنة، وأقاموها بعد رسول الله (ﷺ)، وملَكوا الدّنيا مدّةً من أَلف شهر مقدار ثلاث مئة وثمانين عاماً وثلاثة أشهر؛ بَنَوْا فيها جامعَ قُرطبة المزيّن المشهور، وفَتحوا من جزيرة إسبانية

---

(١) أنساب الأخيار، وتذكرة الأخبار: رحلة المدَجّن الحاج عبد الله بن الصباح: ١٩٨.

(٢) يعني أَشهرهم صلاحاً. وقد لقب هشام بن عبد الرحمن الداخل بعمر بن عبد العزيز الثاني للشبه الكبير بينهما في طرائق الحكم وسياسة الدّولة ومعاملة الناس (انظر كتابنا: التقاليد الشامية في الديار الأندلسية: ٤٤-٥١).

(٣) لقب بذلك لصبره وجَلَده على شُؤون الدّولة، وهو مروان بن محمد آخر خليفة أمويّ في المشرق؛ اغتاله المسوّدة سنة ١٣٢ (حكم من ١٢٧ إلى ١٣٢).

مسيرة ثلاثة أشهر من جبل الفتح، وطريقه إلى مدائن بُرْطُقَال[1] وإفرنج إلى مدينة طَرّكُونة[2] كما جاء في تاريخ الفُتوح المشهور[3].

(٣)

ومن لطائف العلاقات والصّلات بين الشام والأندلس: تسمية بلدان ومواضع أندلسية بأسماء مدن شاميّة، وتَداول هذه الأسماء الشّامية - الأندلسية في الاستعمال الشعبي، والرسمي، وفي الرسائل والأشعار والتواريخ والأخبار.

- ولذلك أصلٌ في التاريخ الأندلسي مشهور.

- لمّا دخل أبو الخطار الكلبيّ الأندلسي والياً عليها من طرف ابن عمّه حنظلة بن صفوان الكلبي والي إفريقية الذي عَيّنه هشام بن عبد الملك، وأمره أن يعين أبا الخطار على الأندلس. وكانت الأندلس تعاني من فتنة لها طرفان: الشاميّون والأمويّون (مواليهم وأتباعهم) من جهة والبلديّون والبربر من جهة أخرى لأسباب سياسيّة، وذات علاقة

---

(1) هي البرتغال، وجبل الفتح هو اسم أطلقته دولة الموحّدين على جبل طارق.

(2) مدينة في أقصى الشمال الشرقي في الأندلس.

(3) لم يسم الرحالة المدجّن اسم الكتاب الذي رجع إليه. والمعلومات التي قدمها مشهورة في تاريخ الأندلس.

بالوجود والنّفوذ. وافق الطرفان المختلفان في الأَندلس على ولاية أبي الخطّار، وقال له البلديّون من الأندلسيين والبربر: «سمعنا وأطَعْنا، ولكن لا مَحْمَل فينا (لا طاقة بنا) لهؤلاء الشاميّين فليخرجوا عنا. فقال لهم: أَدْخُل قرطبة، أستريحُ، ثم يكونُ ما تريدون، فقد ظَهَر لي أمرٌ فيه صلاحُ جميعكم إن شاء الله»[1].

ونظر أبو الخطّار في إنزال الشّاميّين في كُوَرِ الأندلس وتفريقهم عن قرطبة إذ كانت لا تحملُهم (لا تستطيعُ استيعابهم لكثرتهم) فأنزل أهل دمشق بإلبيرة، وأهل الأردن برُيّة، وأهل فلسطين بِشَذُونة، وأهل حمْص بإشبيلية، وأهل قنّسْرين بِجَيّان، وأهل مصر بِباجّة، وقطيعاً منهم بِتُدْمير[2].

وغَلب على هذه المناطق والمدن تلك الأسماء الشاميّة والمشرقيّة، وكثر تسمية إشبيلية باسم حمص، واستمر ذلك مع الزّمن بعيداً عن بدايات الأندلس، ونقرأ لأبي البقاء الرندي (توفي ٦٨٣ هـ) يتلهّف على ضَياع إشبيلية في زمانه:

[من الكامل]

وأين (حمصٌ) وما تَحويه من نُزَهٍ ونهرُها العَذْبُ فَيّاض ومـــلآنُ؟[3]

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس - ابن القوطيّة: ٤٢-٤٣.

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٣- ٤٤ وقوله قطيعاً منهم أي قسماً أو جزءاً.

(٣) أبو البقاء الرّندي محمد رضوان الداية): ١٣٠ ومصادر القصيدة ثمّة.=

من قصيدته الشهيرة:

لكل شيء إذا مـا تـم نقـصان فلا يغر بطيب العـيش إنـسان!

(٤)

ومن دلائل هذا الارتباط الأندلسي- الشامي- الأُمويّ الذي رسخ في نفوس الأندلسيّين ما لاحَظه د. حسين مؤنس، وهو يعرضُ رحلةَ ابنِ جُبَيْر، وقد أقام هذا الرحالة في رحلته الأولى في دمشق قرابةَ السّبعين يوماً، أي قريباً من المدّة التي قضاها في الحِجَاز، وستّ مرّاتٍ ونصفاً قَدْرَ المدّة التي قضاها في بغداد؛ فقد قال[1]:

«ليس مردّ هذه الإقامة الطويلة إلى مجرّد البحث عن وسيلةٍ للسّفر من دمشق إلى عكّا على طريقٍ كانت إذ ذاك تحت سُلطانِ الصّليبيّين؛ بل مردّه في الحقيقة **إلى هذا الأُنس الذي كان الأندلسيّون يجدونَهُ في عاصمة الشام للمُشَابهة في البيئة الطّبيعية، وأَخْلاق النّاس، ورابطةِ الأُمويّة**».

وهذا الأُنس مصْداقُ ما يقوله الجغرافيّون الأندلسيّون عن بلادهم من أنّها شاميّة؛ ولهذا لا نكاد نجدُ رحالةً أو حاجّاً أندلسيّاً

= - والنهر هو: الوادي الكبير، الذي ما يزال يحمل اسمه العربي إلى الآن: Guadalquivir

(١) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس: ٤٣٣.

http://al-maktabeh.com

إلا يُطيل المقام والكلام في دمشق أو غيرها من مدائن الشام.. «وعبّر المقّري التلمساني عن هذا الشوق الشامي للأندلسيّين في صفحاتٍ من كتابِه النّفيس: نَفْح الطيب»[1]

(٥)

يرصد المؤرخ من أحوال الأندلسيين في القدس والأقصى وسائر أرض فلسطين فئات،هم:

- **الزائرون القاصدون إلى القدس**، والمسجد الأقصى للصّلاة فيه، ومشاهدة مصلى النبي (ﷺ) ليلة الإسراء والمعراج، وطلب الثواب المذكور في الأثر الشريف: من حديث أبي الدرداء (رضي الله عنه): «فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره مئة ألف صلاة، وفي مسجدي هذا ألف صلاة، وفي بيت المقدس فخمس مئة صلاة»[2].
- **والرّحّالةُ**: سياحةً أو تجارةً: الذّين يمرّون بالقُدس، ويَتَلَبّثُونَ في رحابِ الأقصى وسائر المواضع المشهودة، ويجعلون ذلك في جُملة مَطالِبهم ومَقاصِدهم.

---

(١) مواضع متفرقة في الجزء الأول من النفح.

(٢) أورده التّجيبيّ في سياق أحاديث عن الرّحلة (السّير إلى المساجد الثلاثة، وذكر عدداً من الفضائل الواردة فيها: مُستفاد الرحلة والاغتراب: للسّبتي:٣٣١).

- **والذين يَجْمعون** إلى بعض مقاصد الرحلة المشهورة غرض طلب العلم. وقد أثبت أبو بكر بن العربيّ، في ما بقي مما سجل من رحلتِه – التي سأعرضها في ما يأتي – أن القدس كانت مجالاً رحْباً للعلماء الكبار: تفيد القاصدين من طلبة العلم، وتضيف إلى حركة العلم دروساً ومحاضرات وندوات، وآثاراً علمية مُتناقلة، **ويبرزُ فيها علماء من أهل فلسطين، ومن الوافدين عليها**. وكان من العُلماء الأندلسيين الذين لقيهم أبو بكر بن العربي عالم الأندلس الشهير: أبو بكر الطرطوشي نزيل الإسكندرية (ولنا عنه كلام في هذا الكتاب).
- **والمجاورون** الذين طابت لهم الإقامة في القدس مجاورةً للمسجد الأقصى، وانشغالاً بالعبادة، وسائر ما يستفيده المجاور من حضور مشاهد العلم، ومظاهر الحياة «الرّوحيّة» الصّافية.
- **والمُرابطون**، المشاركون في جهاد العَدوّ، وقد كان العدوّ يتسَلّل ويفجأ البلاد الشّريفة من جهتين: الغرب الذي طغى بالحروب الفرنجية التي سماها الأوروبيون حرباً صليبية، والشرق الذي جاء منه المغول، متحالفين مع أوروبّة أو منفردين بهجومهم الهمجيّ التخريبيّ الاستعماري.
- **ونلتقط خبراً مهماً جداً** في هذا المجال من رحلة ابن جُبَيْر الكناني؛ وسوف أعرض لها في هذا الكتاب؛ أوْرَده، وهو يسجّل مجريات عَوْدَتِه من دمشق والبلاد الشامية الداخلية إلى

الساحل طلباً للوصول إلى عكا للركوب في البحر، عودةً إلى الأندلس. قال[1]:

«... وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الإفرنج، يعرف بـ: تِبْنِين[2]، وهو موضع تمكيس القوافل[3]، وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة، هي أم الملك الخنزير صاحب عكّة، دمّرها الله.

فكان مبيتُنا أسفل ذلك الحصن، ومُكّس النّاس تمكيساً غير مُسْتَقْصىً، والضّريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصّوريّة على الرأس، ولا اعتراض على التّجار فيه لأنهم يقصدون موضع الملك الملعُون، وهو محلّ التّعشير[4]، والضّريبة فيه قيراط من الدّينار. والدّينار أربعةٌ وعشرون قيراطاً.

وأكثر المُعْتَرَضين في هذا المكس المغاربة، ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين، وذلك لمقدّمة منهم أحفظت الإفرنج عليهم[5]، سببها أنّ طائفة من أنجادهم[6] غزت مع نور

---

(١) رحلة ابن جبير: ٢٧٤، وهي رحلته الأولى.

(٢) تبنين في معجم ياقوت (٢:٦٤) «بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور» قلت وهي الآن في قطر لبنان.

(٣) التمكيس: الجمركة (وأخذُ رسوم الانتقال هنا).

(٤) أي أخذ العُشر.

(٥) أي أثارت حفيظتهم ، وسبّبت غيظهم.

(٦) الأنجاد جمع نَجْد، الذين يُنجدون ويعينون حين يطلبون، في أوقات الشدّة.

الدين[1]، رحمه الله، أحد الحصون فكان لهم في أخذه غَناء[2] ظهر واشتهر، فجازاهم ملك الإفرنج بهذه الضّريبة المكسيّة: ألزموها رؤوسهم، فكل مغربيّ يزنُ على رأسه الدّينار المذكور في اختلافه على بلادهم (يعني في تنقّله في الأراضي المحتلة).

وقال الإفرنج: إن هؤلاء المغاربة[3] كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزؤهم[4] شيئاً؛ **فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضّريبة عليهم. فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدوّ، يسهّله عليهم، ويُخَفّفُ عَنتهم عنهم.**

---

(١) الغَناء: الكفاية والمقدرة، وبالغ الإفادة.

(٢) نور الدّين، أبو القاسم محمود بن زنكي (عماد الدين) الملقب بالملك العادل من المماليك ولد في حلب ٥١١. تولى الإمارة بعد وفاة أبيه ٥٤١. امتدّت دولته في الشام كلّه تقريباً والموصل وديار بكر والجزيرة ومصر وبعض بلاد المغرب. وخطب له بالحرمين. كان عادلاً متديناً. وكان موفقاً في حروبه مع الصليبيّين، وحصّن البلاد وبنى الأسوار، وبنى المدارس وشجع العلم والعلماء، وكان يخالط العلماء ويأخذ عنهم وكان يتمنى أن يموت شهيداً، فمات بداء الخوانيق فقيل له الشّهيد (٥٦٩) وقبره في المدرسة النورية بدمشق. وكان بناها للأحناف. وما يزال ذكره عاطراً في الجهاد، والحفاظ على سلامة البلاد والعباد، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

(٣) المقصود بالمغربي: من كان من أهل الأندلس والمغرب.

(٤) رزأه شيئاً: أصاب منه، أخذ.

فالملك الإفرنجي الذي استولى على تبنين يغرّم الأندلسيّين والمغاربة من ضريبة المرور مبلغاً إضافياً على الرسم المألوف؛ لأنهم يساعدون إخوانهم المشارقة في حرب الصليبيّين، ويصيبونهم ويسهمون في قتالهم وهزيمتهم.

- **والمتمّمون مقاصدهم الدينيّة من أداء الحجّ، وزيارة المدينة المنوّرة ومسجدها المكرّم**، والوصول إلى روضة رسول الله (ﷺ) العطرة وأداء ما يجب على المسلم أداؤه وإظهار الشوق والمحبّة، والصّعود شمالاً إلى فلسطين، والقدس، والمسجد لأقصى. وكان بعض الرحالة، وقاصدي الحجّ والعمرة والزيارة لا يَصلُون إلى القدس: لظروفٍ خاصة بهم، أو لطوارئ طارئة مثل ما جرى لابن جُبير، فإنه حين حجّ وزار، وطوّف في العراق والشام لم يدخلْ القدس لأنها كانت - حينئذ - تحت الاحتلال الصليبي.

(٦)

إن البحث في قضية الأندلسيّين الذين وفدوا على فلسطين والقدس، وفي كتب التاريخ والتراجم والرحلات والبرامج، وفي الرّسائل والأخبار والأشعار يُضيفُ إلى التاريخ والمعرفة وحركة الحياة في البلاد الإسلامية إضافاتٍ مفيدة جداً:

http://al-maktabeh.com

- في جانب الأندلس التي نحتاج معه إلى كلّ خبر أو إضافة أو إضاءة تزيد في وضوح الصّورة التاريخية والاجتماعية والثقافية والسياسية.

- **وجانب فلسطين**، والقدس خاصّة، فإن في آثار الواردين والمجاورين والزّائرين: في نثرهم وشعرهم وذكرياتهم ورحلاتهم ومشاهداتهم وتعليقاتهم: فوائدَ عظيمةً تضيف الكثير إلى مفردات تاريخ القُدس والخليل وسائر بلاد فلسطين. فإنّ هؤلاء القادمين يَرون ويسجّلون من الأمور ما لا ينتبه ابنُ البلدِ في كثيرٍ من الأحيان إليه.

ويخرج الدارس لما كتبه الأندلسيّون، وما رُوي عنهم وما كان منهم، وما التفتوا إليه في القُدس وسائر فلسطين بأمور كثيرةٍ، هي جميعاً **ذات أهميّة في جوانب الفكر، والتاريخ، والثقافة، والتربية، والشعر والفن؛ وفي تسجيل أحوال الحياة والناس من:**

- **تسجيل** وقائع وأحداث تاريخيّة معاصرة للكاتب الأندلسي، وهو غالباً رحّالة يرصد الأحوال في البلدان التي يمرّ فيها، أو يقيمُ مدّةً من الزّمن. وكانت القُدس (وقلبها: الأقصى) في مهمّات تطلّعاتهم وآمالهم.

- **وذكر** أسماء علماء وأُدَباء وفقهاء وغير ذلك ممّن يلقاهم الأندلسيّ، وخُصوصاً الرحّالة، وأصحاب البرامج (كتب برامج العُلماء، أو الفهارس أو: المشيخات...)
- وتسجيل أسماء الكتب الشّائعة بين أيدي العلماء والرّائجة بين طلبة العلم في رحاب الأقصى خاصّة.
- **وتصوير** حركة العلم في مدينة القُدس، والمُدن الفلسطينية الأُخرى عامّة، وفي رحاب المسجد الأقصى خاصّة. ومن النّماذج الدالّة التي يشار إليها باهتمام ما ورد في رحلة أبي بكر بن العربيّ.
- **وتسجيل** أحوال المزارات والأماكن التاريخية في بيت المقدس، وفي الخليل وغيرهما من البقاع والأماكن بحسب ما سَجّله الرحّالة الأندلسيون وخصوصاً رحلة المُدَجّن.
- **وتسجيل** العادات والتّقاليد في الأقْصى، وفي الأماكن ذات الأهميّة التاريخيّة. ويجد قارئ رحلة المدجّن الأندلسي الحاج عبد الله بن الصّبّاح تفصيلات ذوات أهميّة لما كان يجري في القُدس وبلاد أُخرى فلسطينيّة كثيرة في المساجد التاريخية وفي المزارات، وما كانت عليه الأوقافُ من بذلٍ وعطاءٍ ومن توفير الموائـــد وكفاية المُحتاجين والغُرَباء والوافدين...
- **والمقَاربة** بين بعضُ البُلدان المشرقية والبلدان الأندلسيّة في العمران والاجتماع وغير ذلك..

- **وتثبيت الهوية الواحدة لأبناء الأمة، من أقصى الأندلس إلى القدس والمسجد الأقصى**.. ومن الطريف في هذا الباب أن أحد علماء الأندلس وهو ابن الأزرق، وسنقف عند خبره في هذا الكتاب، قد تولّى منصب قاضي القضاة في المسجد الأقصى قبل سُقوط غرناطة بأقل من عام.... فهي صلة موصولة من أوائل ظهور الأندلس في تاريخ العرب والإسلام إلى أيام الإسلام الأخيرة في ذلك الفردوس المفقود، أو الموعود[1].

---

(١) كان المؤرخ العربي الكثير الاهتمام بالأندلس الدكتور حسين مؤنس رحمه الله يفضل عبارة (الفردوس الموعود). انظر مقدمة كتابه: (رحلة الأندلس).

(٦)
حركة حيوية بين القُطرين

يرصد الدّارس أَغراضاً مُتَعَدّدة لقصدِ الأندلسيّين إلى القُدس وإلى مُدن فلسطينية أخرى:

- **أوّلُها العلاقة الوثيقةُ بين أَجزاء الدّولة (أَو الإمبراطورية)** العربية الإسلامية، بين مشرقِ البلاد ومغربها. ولا شكّ في أن للقطر الفلسطيني مكانة خاصة عنوانها البارز هو المسجد الأقصى، والهالة الدّينيّة التي تطيف به، ويتألق- من خلالها - في النفوس والقلوب. لقد قصد ابن جبير الكناني صاحب الرّحلة المشهورة (رحلة ابن جبير) من الأَندلس إلى القدس ليصلّي في المسجد الأقصى بعد تحريره من الفرنجة - الصليبيّين - لأنه لم يستطع في رحلته الأولى التّقديس، فقد كان الفرنجة يحتلّون القُدس وقْتَها. (ولنا عودة إلى هذه الرحلة وإلى صاحبها)؛

- **وتَبادل الزّيارات بين الأُسَر الموزّعة بين القُطرين**، ولمّ الشّمل واستمرار العلاقة، أجيالاً متوالية؛ حتّى انقضاء الزّمان الأندلسي.

- **وحركة طلب العلم، والرّواية، ولقاء العُلماء**، وسنجد في البقيّة الباقية من رحلة القاضي أبي بكر بن العربي الأخبارَ الموثّقة عن مكانة القُدس، وسائر مدن فلسطين في الثقافة والحضارة، والعلوم والفُنون المختلفة.

- **وكان في بيت المقدس**، والأقصى خاصة، مكتباتٌ تضمّ الكتب المختلفة التي يحتاج إليها الطلبة والمشتغلون بالعلم. وإذا غابت الأخبار المفصلة في هذا الشأن فإن القياس يجيب عن أمثالها من انتشار المكتبات العامة والخاصة في الأمصار الإسلامية وفي سائر المدن والقرى، وفي المساجد خاصة. ويَرقى هذا الاهتمام بالعلم وأهله، والكتب واقتنائها ونشرها إلى العصور الإسلامية الأولى منذ الاستقرار بعد الفتوح ومجيء العلماء إلى القدس ابتداءً من الأصحاب الذين بعث بهم عمر (ﷺ) إلى القدس. ومواصلةً مع عناية معاوية (ﷺ) وسائر بني أمية بالمساجد والمباني، وترتيب الخطب، والأئمة، وفسح المجال للعلماء والمدرسين ورعايتهم جميعاً.

وقد أشار أبو بكر بن العربي إلى مكتبة كان يرتادها في المسجد الأقصى، في كتابه قانون التأويل، ومنه قوله – عند حديثه عن قراءاته في المشرق –:

http://al-maktabeh.com

«فقرأت من كتب التفسير كثيراً وَوَعَيْتُ من حديث رسول الله (ﷺ) عيوناً **كتفسير الثعالبي الذي كان وقفاً في كتب الصخرة المقدسة.**

- **وحركة عناصر الحياة العامّة في جوانب الاقتصاد، والتجارة، وتبادل البضائع.** لقد كانت الأندلس مُصَدّراً مشهوراً لبضائع مختلفةٍ من دقيق الأشياء ومُهِمّها؛ وفي الدّراسات الأندلسية إشاراتٌ إلى اتساع نطاقِ الصّادرات الأندلسية مثل أنواع الخزف الفاخر، وأنواع الفواكه المجفّفة، كتين مالقة الذي كان يصل إلى مصر والشام والعراق والهند؛ وما يزال أهل دمشق والغوطتين يسمّون الأواني الخزفيّة من الأطباق وغيرها باسْم (المالقي) مع أنّ هذه الأنواع لم ترد من الأندلس إلى بلاد الشام منذ خَمسة قرون. وتنافسها الآن كلمة (الصّيني)، ولكنّ (المالقي) ما تزال باقيةً في الاستعمال، تورّخ لتلكَ العصور الخاليةِ التي اتّصلت فيها أقطارُ العَرب والمسلمين في ما بينها من خلال حركة التّجارة أيضاً اتصالاً وثيقاً. وقد سمعت من زملاء وأصدقاء أن اسم المالقي مستعمل إلى الآن في تونس، وفي ليبيا أيضاً، وهذا من أدلة سعة النفوذ الاقتصادي الأندلسي في ديار الإسلام الواسعة.

- **وسجّل التّاريخ انتقال بعض أهل الأندلس إلى القدس وفلسطين واستقرارهم** فيها مثلما سَكنوا أيضاً في سائر ديار الشام كدمشق، وحمص، وحلب. وأبرزُ الأسماءِ الباقيةِ، في هذا المجال هي من العُلماء والأُدباء والرّحّالة....

- **وكانت القُدْسُ، ومدنٌ أخرى في قُطر فلسطين مَلاذاً للمُهاجرين عن الأندلس** هجرةً قسريّةً حين ضغطت قشتالة، وسائر الدول أو الدويلات المعادية لأهل الأندلس، وانزاحت حالاً بعد حال من الشمال إلى الجنوب.

- **وقد استقرّ في مدينة القُدس العلماء والخطباء والفقهاء** الذين اختارهم الحاكم الذي تتْبَعُه الدّيار الفلسطينية لأعمال معيّنة مثل الإفتاء والتدريس، والإمامة والخطابة في المسجد الأقصى، ومنصب قاضي القضاة كما سوف أفصّل في ما يأتي.

- **وكان عنصر الجهاد في البلاد الإسلامية عُنصراً مشتركاً بين الأندلسيّين والمشارقة**، وخُصوصاً مع من بيدهم أمْرُ بلاد فلسطين وسائر بلدان الشام، وبَرز ذلك بوضوح أيّام الزنكيّين والأيّوبيين والمماليك. ولنا عودةٌ إلى هذا الجانب.

وتكشف أخبار الأندلسيّين الرحّالة إلى المشرق من أهل العلم وطلبته خاصّة أنهم كانوا يلقون أبناء بلادهم الأندلسيّين الذين سبقوهم إلى المشرق ليأخذوا عنهم علماً أو روايةً، ويُفيدوا من خبراتهم في بلاد المشرق في مصر والحجاز والشام، وما وراء ذلك أيضاً.

- **وفي رحلة** أبي بكر بن العربيّ خبرٌ عن لقائه الفقيه الزّاهدَ أبا بكر الطّرطوشي في مدينة القدس، قال[1]:

«ومشيتُ إلى شيخنا أبي بكر الفِهري رحمة الله عليه، وكان ملتزماً المسجد الأقصى- طهّره الله - بموضع يقال له: الغُوير بين باب الأسباط ومحراب زكريّا (عليه السلام) فلم نلقه به، واقتفيْنا أثره إلى موضع يقال له السّكينة فألفيناه، فشاهدتُ هَدْيَهُ وسمعتُ كلامه فامتلأت عيني وأذني منه».

وكان أبو بكر بن العربي قد سأل والده الذي يرافقه في الرحلة أنْ يقبل منه البقاء في القدس حتّى يتلقّى علم علمائها الذي لا يعرفه، فقال ابن العربي متابعة[2]:

«وأعلمه أبي بنيّتي- يعني أعلم أبا بكر الطرطوشي في البقاء طلباً لمزيد من العلم - فأناب، وطالعه بعزيمتي فأجاب، وانفتح لي به كلّ باب، ونفعني الله به في العلم والعمل، ويسّر لي على يَديه أعظم أمل، فاتّخذتُ بَيْتَ المقدس مَباءة[3] والتزمت فيه القراءة،.....

---

(١) من رحلة أبي بكر بن العربي، في كتاب (قانون التأويل) من تأليفه: ٩٢-٩٣.

(٢) المصدر السابق: ٩٣.

(٣) مباءة: منزل.

- **وبالمناسبة**، فإن الأندلسي قد يقطع الأراضي والبلاد ليلقى أندلسياً آخر، وخاصة إذا كان أكبر سنّاً أو أغزر علماً، وأضيف هنا خبراً فيه طرافة. فقد روى أبو الفضل جعفر بن ثعلب الإدفوي مؤلف كتاب: **(الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد)** خبراً عن أستاذه الشهير: أبي حيّان الأندلسي من كبار علماء اللغة والنحو، الذي انتقل من غرناطة إلى القاهرة وعاش هناك إلى وفاته. قال الإدفوي في ترجمة كمال الدين محمد بن أحمد القرطبي القنائي (نسبة إلى قرطبة بالأندلس وقِنا بصعيد مصر):

«سمع منه شيخنا أبو حيان الأندلسي وغيره وألف تاريخاً من مجلّدات، وكانت له رياسة ووجاهة وكان مبجّلاً، وحكى لنا شيخنا أثير الدّين أبو حيّان قال: وَرَدْتُ قِنا، وسمعت عليه من أوّل مُسلم وامتدحتُه بقصيدة منها»:

[من البسيط]

وبيننا نِسْبَةٌ تُرْعـى وإن بَعُـدَتْ لكوننـا ننتمـي فيهـا لأنـدلسِ

- فلم يكسر في وجهي كسرة[1]!

---

(١) يعني لم يكرمه على قصيدته ولو بدعوة إلى الطعام (الكسرة القطعة من الخبز، وهي في الدارج من كلام الأندلسيين والمغاربة تعني الخبز مطلقاً).

- **والخبر طريفٌ** في موضوع البُخل والكَرم، ولكنّ الشّاهد في التحرّي عن أبناء الوطنِ الأندلسيّ، والالتفافِ حولهم، في الموطن الجديد من بلاد المشرق.
- **ودخل في** أغراض الأندلسيين في قَصْدهم إلى المشرق، إضافةً إلى ما سبق ذِكره: تعريفُ أهل المشرق بحقيقة حال الأندلس وحاجتها إلى المؤازرة. وقد كانت هناك سفاراتٌ خاصّةٌ، ورسائل مُرْسلةٌ إلى بعض بلدان الشرق المتوليّة السُّلطة، غير أن جهود العُلماءِ والأدباءِ وسائرِ الوافدين كانت تضيف صفةً شعبيّةً تلقائيّة.

وقد وقف الدكتور حسين مؤنس عند أديب جُغرافي أندلسي انتقل من الأندلس إلى المشرق هو: **إلْيَسع بنُ عيسى بن حَزْم الغافقي الجَيّاني الأندلسي** (٥١٠-٥٧٥) وترجم له في جغرافيّي الأندلس وقال إنه لم يكن جغرافيّاً أصيلاً، **ولكنّه كتب في جُغرافية الأندلس على سبيل الدّعوة لوطنه الذي خلّفهُ وراءه في حال من الاضطراب**، ومن ترادُف الأخطار جعلت الأمل في إنقاذه ضئيلاً. ولهذا بالغ في وصف محاسنه ليحفز الهمم على السّعي لاستنقاذه.

- **قال**: ولم ينفرد إليسع بهذا الطراز من الكتابة عن الأندلس فسنرى أنّ علياً بن **سعيد المغربي** يفعل هذا أيضاً... لقد كان داعيةً للأندلس انتدب نفسه للحديث عن وطنه بين إخوانه في

http://al-maktabeh.com

أوطان المسلمين مذكراً إياهم بما كان للأندلس من عزّ ومجد، وماله من حقوق على المسلمين[1]... لقد كان أمثال إليسع في المشرق كثيرين جداً.. ولكنّ القليلين منهم اجتهدوا في الدعوة الخالصة لإنقاذ الأندلس.

وكان إليَسع هو الخطيب الذي انبرى للخُطبة في القاهرة للخليفة العبّاسي حين أسقَط صلاح الدين الأيوبي الدّولة العبيدية (الفاطميّة) بعد أن أحْجَم الآخرون. وقد نالَ إلْيَسع حُظوة عند النّاصر صلاح الدّين... قال الدكتور مؤنس بعد الكلام على إليسع وأثره الأدبيّ والسّياسي: «ومَنْ يدري فربّما كان لإليسع أثرٌ في ما لُوحظ من اهتمام صلاح الدّين بالجناحِ الغربيّ لمملكة الإسلام، وتطلّعه إلى التّعاون مع الموحّدين»[2]

وكان القاضي العالم الأندلسي ابنُ الأَزرق[3] آخر شخصية أندلسية رفيعة يصل إلى المشرق: طالباً نجدة المماليك للأندلس، وهي في اشتداد محنة الحصار من العدوّ، وهي في الذّروة من الحاجة إلى المساعدة والإنقاذ. ولكن السّلطان قلاوون ومَنْ عنده من رجال السّياسة لم يقرؤوا الأحداث بالوعي والشّمول اللازمين، وأهملوا إنقاذ الأندلس، فاندفع الإسبان والبرتغاليّون بعد

---

(١) تاريخ الجغرافية والجغرافيّين في الأندلس : ٣٠١.
(٢) المرجع السّابق: ٣٠٢.
(٣) لنا كلام عليه في هذا الكتاب.

سنوات قليلة يُفسدون في أقاليم المماليك وغيرهم في الشرق كلّه: الأدنى والأوسط والأقصى.

- **لقد فات** المماليك والعُثمانيّين أنّ إهمال إنقاذ الأندلس والسّكوت عليها حتى سقطت غرناطة سنة ٨٩٧ هجرية أدّى إلى اندفاع الإسبان والبُرتغاليّين، ومِنْ بَعْدِهم شعوبٌ أوروبية أخرى إلى ممالك المسلمين وبلدانهم غرباً وشرقاً. لقد تغيّر وجهُ التاريخ، في غير مصلحة العرب والمسلمين، منذ نكبة الأندلس ذات الأصداء المتمادية في المكان والزمان: تأثّرت السياسة، وتأثر الاقتصاد، وتَغَيّرَ ميزان القوى، وتعطّلت كثيراً طرقُ الحرير والتّوابل، وسائر طرق التجارة، وانعدم الأمان الذي تمادى في بلاد المسلمين زماناً طويلاً، وتأثرَ البَحْرُ مثلما تأثّر البَرّ من أقصى المغرب إلى أرخبيل الملايو.....

ثم أقول:

أمُّةُ صِنَاعَةِ التّاريخ، فاتَها في الموقفِ الحَرِج، والزَّمَنِ القاتِل، أَنْ تُفيدَ من عِبَرِ التَّاريخ!..

فيا رحمة الله!....

www.al-maktabeh
مكتبة المهتدين

(٧)

اسْتِهْدافٌ مُشْتَرك..... و وُجْدَانٌ واحِد

كانت حركة الفتح الإسلامي: تحريراً ودعوةً وهدايةً: **حركة شاملة** في الجغرافية: اتجهت شمالاً إلى بلاد الشام والعراق وشرقاً إلى الصين وغرباً إلى إفريقية وأوربّة.

ونتج عن هذه الفتوح السّريعة، ذات النّجاح الباهر أنْ سقطت دولٌ عظمى: الأكاسرة في فارس وما يتبعها، والرّوم (بيزنطة) في الشام وإفريقية والأندلس. وانقلب البحر المتوسّط بُحيرة عربيّة السِّيادة، وفقد البيزنطيون مُعظم ممتلكاتهم وانحصروا في قطاع من آسية الصغرى (الأناضول) وأرض الرّوم من أوربة.

وكان على (الإمبراطورية الإسلاميّة) أو الدّولة العربية الإسلامية الكبرى أن تبقى على اليَقظة والاستعداد؛ فإن الخطر من الشرق ومن الغرب وارد في كل وقت. وقد تأخر خطر الشرق الشديد القاتل إلى القرن السابع الهجري حين اندفع المغول

في حركتهم المدمّرة الهمجيّة حتى أسقطوا بغداد سنة ٦٥٦، وبعثروا مراكز الحضارة الإسلامية العظيمة، وبدّدوا كثيراً من مُعطياتها. ولكنّ خطر الغرب كان أسرع وأشدّ بأساً على الأرضِ والنّاسِ وسائرِ مُعطيات الحضارة.

وظلّت بوّابات الغَرْبِ من القرن الهجريّ الأوّل مُنْذرةً بالخَطر: من حُدود بيزنطة المُطلّة على الدّيار الشّامية، فرتب المسلمون وسائل الدفاع البرية والبحرية: شحنوا الثغور (الحدود الساخنة) وأفلحوا في رصد حركات العدو، وصدّه، وإيذائه. واستمر ذلك مع العقود المتوالية، ودقّ الجيشُ الأموي بقيادة يزيد ابن معاوية بن أبي سفيان قبل توليه الخلافة أبواب القسطنطينية. وبقي المسلمون على وعيٍ واستعدادٍ مستمرٍ. وكانت حروب سيف الدولة الحمداني (أواسط القرن الرابع الهجري) نموذجاً لهجمات الغَرْب الذي يريد العودة إلى بلاد العرب ويطمح ويطمع، ونذكر هنا قول أبي الطيب المتنبي في وصف جيش الروم في إحدى معاركه مع سيف الدولة:

[من الطويل]

تجمــعَ فيــهِ كــلُّ لِــسْنٍ وأمّــةٍ فما يُفْهِمُ الحُــدّاثَ إلاّ التــراجِمُ[1]

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي: ٣٦٧.

فالعدو كان أشبه بحملة صليبية متقدمة في الزمنِ، مجتمعة من أمم أوربية كثيرة. فلمّا أشرف القرن الخامس كانت أوربة قد تهيّأت للحملات العسكرية التي تختلط فيها الأغراض الدينية المتشنّجة، والاستعمارية المدمّرة المعروفة بغزوات الفِرنجة، والتي سمّاها الغربيّون بالحروب الصّليبية!!.

الهجوم غرباً:

التفت الأوربيّون والبابويّة معهم، أو هي تخططّ لهم، إلى الجانب الغربي من الدّولة العربية الإسلامية في الأَندلس. وجنّدوا الأجناد مزوّدين بكل فكرةٍ وحشيةٍ وأساليب إرهابية، وكان لهم أنشطةٌ متوالية تقلّ أو تتوقف تماماً حين يكون الحكم في الأندلس قويّاً كالحال في عصْرِ الدّولة الأموية المروانيّة (١٣٨-٤٢٥) وتنتعش وتَقْوى كلّما ضعف الجانب العربي الإسلاميّ، ابتداءً من عصر دول الطّوائف هناك.

واشتدت الحملةُ الأوروبيّة على الأندلس مع اشتداد الحملة الصّليبية على المشرق. كانا كطرفي «كمّاشة» تنقضّ على البلاد والعباد، على الصّورة التي باتت مألوفةً من هَدْمِ البُنيان الحضاريّ العظيم بوحشية وهمجيّة. وكان الموقف مرتبطاً بتماسك الأُمّة وتعاوُنِ أَفرادها وجماعاتها، واتفاق حكّامها وأمرائها في كلام يطولُ شرحه؛ نتركُه لمواضيعه من التواريخ المشهورة.

http://al-maktabeh.com

ونذكرُ على سبيل المثال أنّ مدينة طليطلة، وهي مركزٌ لجميع بلاد الأندلس[1] قد سقطت في يد الطّاغية ألفونسو سنة ٤٧٨ وأنّ القدس سقطت بيد الصّليبيين سنة ٤٩٢، وإذا كان إعادةُ فتح القدس قد تأخر إلى ٥٨٣ فإن طليطلة بقيت أسيرةً، حتى انقضى الزّمان العربيّ الإسلاميّ في الفردوس المفقود.

وهكذا واجهت الأندلسُ تلك الحُروب الفرنجيّة (الصليبيّة) مثلما واجهت بلادُ الشام عامّة، وفلسطين والقدس خاصّة حروباً مشابهةً أيضاً. وكان هدفُ العدوّ واحداً هنا وهناك.

- وقد جعل ابنُ الأثير الأندلسَ الهَدَف الأوّل للفرنجةِ قبل المشْرِق، ونقرأ في تاريخه[2]:

«كان ابتداء ظُهور[3] دولة الفرنج، واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربع مئة، فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس».

ثم قال: «... ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربع مئة جزيرة صقلية وملكوها... فلما كان سنة تسعين وأربع مئة خرجوا إلى بلاد الشام،».

---

(١) الرّوض المعطار: ٣٩٣.

(٢) الكامل في التاريخ ١١: ٢٧٢.

(٣) يعني تفوّقهم.

والصّورة واضحة لقارئ التّاريخ، فإن أوربّة ضاقت ذرعاً بامتدادِ الإسلام والمُسلمين على حُدودٍ واسعةٍ من العالم القديم، الذين صار في أيديهم معظم المفاتيح الاقتصاديّة والعسكرية في كلّ من آسية، وإفريقية وأطرافٍ من أوربّة. وحرّكها الطمعُ بالأموال والغنائم مثلما حرّكها الطمع بالأراضي والبلاد. وكان لدعواتِ البابوات وتجييشهم الجيوش، وتأييدهم شنّ الحروب أثر مهمّ في كثرة جيوش الفرنجة المتحركة شرقاً وغرباً.

وتشكّلت في إطار هذه الحملات عصاباتٌ إرهابيّة عَمَلُها القتلُ «بِدَمٍ بارد»[1]، والهدم، والتشريد، ومؤازرة الجيوش النظامية. وقد عُرِفت هذه العصاباتُ في فلسطين، والقُدس خاصة، كما عُرفت في الأندلس أيضاً.

ومثلما اشتهرت في المشرق عصاباتُ الدّاويّة والاسْبِتَاريّة كان في الأندلس جَماعة فرسان القَنْطَرة، وفُرسان قَلْعَة رَبَاح (في قشتالة)، وجماعة القدّيس ياقُب في جيليقية، و«الدّاوية» وفُرسان القدّيس يُوحَنّا في البُرتغال... إلى جماعاتٍ أُخرى كان بعضُها يَتَنَقّل بين المشرق والمغرب (والأندلس)!

---

(١) «القَتْل بدمٍ بارد» من الكنايات المعاصرة الشائعة، ولها ترجمة في كتابنا: معجم الكنايات المعاصرة.

وقد أسْهَمَ البابا إسكندر الثّالث، والبابا إنوسنت الثالث إسهاماً مباشراً في قيام أشهر منظّمة دينيّة حربيّة عَرفتها الأندلس، هي منظمة: سانتياجو (شنت ياقب) أو القدّيس يعقوب .

وبالمناسبة، نقول: تكوّنت في القدس فرقتان: فرقة أسموها Templiers أي فُرسان الهيكل، وكانت تعرف عند المسلمين بالداويّة، وأُخرى Hospitaliers أي فرسان المستشفى وكان المسلمون يلقبونها بـــ (الاسبتارية). أما رجال الفرقة الأولى فقد حبسوا أنفسهم لمكافحة المسلمين. وأما رجال الفرقة الثانية فكان اهتمامهم في بادئ الأمر منصرفاً إلى العناية بالحجيج والمرضى من المسيحيّين. ثم تحوّلت الفرقتان إلى هيئة حربية واتخذتا المسجد الأقصى مقراً لأعمالهما، وجعلتاه مستودعاً لأسلحتهما[1]!

الالتفاف حول سَرَقُسْطَةَ نَمُوذجاً:

كانت سَرَقُسْطَةُ إبّان الحكم العربي الإسلامي قاعدة الثّغر الأعلى: مدينة عظيمة في ذاتها، وفي كونها حارسةً للجانب الشمالي الشرقي، وواحدة من مدن الحضارة الأندلسيّة الرائعة. وبعد ٣٣ عاماً من سقوط طليطلة عروس وسط الأندلس التفت التحالف الأوربّي إلى مدينة سرقسطة.

---

(١) تاريخ القدس: ٧٥.

وكانت مدينة سَرَقُسْطَة هَدفاً لأطماعِ دُويلتي قَشْتالة وأراغون معاً. وفي عام ٥١٢هـ (أيار١١١٨) حُوصرت هذه المدينة، ولم يكن الجيش المحاصر لها مكوّناً «فقط من الأرجونييّن أعداء سرقسطة الأصليّين، بل كان يضمّ طوائف عديدةً أُخرى من الفرنج. والواقع أنّنا- والكلامُ للأُستاذ عنان- نجد أنفسنا في هذا الموطن أمام **حملة - صليبية حقيقية**، ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه ملك أراجون ألفونسو المحارب يوالي الضّغط على سَرَقُسْطة ويَجِدُّ في انتزاع حصونها الأمامية حتى إنه استولى على تطيلة في سنة ١١١٧ ووصل أوائل ١١١٨ إلى موريلاّ القريبة منها **كان صدى دعواته وحركاته ضد المسلمين يعمل عمله في الناحية الأخرى من جبال البيرنية**، باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس ٤٩٢هـ (١٠٩٩م). وازدادت الروح الصليبية اضطراماً في فرنسة وإسبانية، ففي سنة ١١١٧م عبرت حملةٌ قويةٌ من الفرنج من أهل (بيارن) بقيادة جاستون دبي بيارن وأخيه سانتولو- وكانا قد اشتركا بالمشرق **في الحرب الصّليبية الأُولى - إلى إسبانية لتشترك مع الأُرجُونيّين في الاستيلاء على سَرَقُسطة.**

وفي العام التّالي ١١١٨م عُقِدَ بمدينة تولوز (تولوشة - طلُّوشة) مؤتمر من أساقفة: آرل وأوشي وبنبلونة ولاسكار وببشتر وتقرّر فيه أن ترسل حملةٌ صليبية أُخرى إلى إسبانية

يقودُها الكونت دي تولوز.... وتصف إحدى الرّوايات الإسلامية هذه الحملة بأنها **كانت كالنَّمل والجَراد.....**»

وفي أخبار حصار مدينة سرقسطة أنّ قُوات كثيفة من الفرنج والأرجونيّين، والبَشْكَنْس والقطلان وغيرهم[1] طوقت المدينة وجاء المحاصرون بأبراج خشبية لينصبوا فوقها الرعّادات، وجاؤوا كذلك بعشرين منجنيقاً ضخماً لدكّ الأسوار، **وكان الذي يُشرف على آليات الحصار واستعمالها طائفة من أهل بيارك ممّن اشتركوا في حصار بيت المقدس** وتمرّسوا باستعمال هذه الآلات. وكان ذلك سنة ٥١٢ هـ (١١١٨م).

وكان ألفونسو المحارب الذي احتلّ سَرَقُسطة قد أوصى قبل وفاته بثلاث سنوات أن تُقسم مملكتُه ثلاثة أقسام، الأوّل يخصّص لسلام رُوح والده ووالدته! والتكفير عن زلاته!.. والثاني يخصّص للفقراء **وفُرسان الإسبتارية ببيت المقدس،** والثالث: يخصص **لفرسان المَعْبد** (الدّاوية) .. وقد ظهر فرسان الدّاوية قبل ذلك بأعوام قليلة في إمارة برشلونة، وكان أميرُها رامون برنجير الثالث أوّل من شجّعهم على القيام في إمارته.... وحاول ألفونسو المحارب قبل وفاته بقليل أن ينشئ جمعية فرسانٍ دينيّةٍ **على غرار جماعة بيت المقدس فلم ينجح...**[2].

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس – محمد عبد الله عنان– ١/٣: ٩٤.

(٢) دولة الإسلام في الأندلس ١/٣: ٤٩٤.

- وحين صارت الأندلس تحت ظل الموحّدين (والمغربُ والأندلس مجموعان في دولة واحدة) كانت قوّاتهم بالأندلس: «قليلة العَدَد، والعُدَد لا تكفي لدفع عُدوان النّصارى سواءٌ من ناحية مملكة قَشْتالة أو مملكة البرتغال. ومن جهةٍ أُخرى فقد كانت الظّروف تهيِّءُ لنصارى البُرتغال أمداداً طارئة لم تكن في الحُسبان هي الأَمْداد الصليبية التي عادت تتقاطر إلى المشرق من ناحية المُحيط **لتنجد الجيوش الصليبية التي ضَغَطَتْها ضربات صلاح الدّين**، وسُقوط المملكة اللاّتينية (في القدس) باسترداد صلاح الدين لبيت المقدس في رجب سنة ٥٨٣هـ (تشرين الأول- أكتوبر سنة ١١٨٧).. وفي أوائل ٥٨٥هـ (أوائل ١١٨٩م) **وصل أُسطول صليبي ضخم من خمسين سفينة يحمل عدداً وافراً من الجُند الألمان والفلمنك إلى مياه إسبانية الغربيّة** من طريق البحر المتوسط، ورَسا في مياه جيليقية قبالة مدينة شانت ياقب (سانتياغو)... إلخ»[1]

(١) دولة الإسلام في الأندلس ٢/٣: ١٧٠-١٧١.

الفصل الثَّاني

في رحاب الأقصى والأراضي المباركَة

«- وقد جاور الأندلسيون في المسجد الأقصى ورحاب بيت المقدس لأغراض مختلفة، وهي جميعاً موصولة بالجوانب التّعبُدية من طلب ثواب المُصلي المؤدي فروضه في ظلال تلك الرحاب الكريمة، والجهاد في سبيل الله على امتداد زمان العدوان الذي تعرضت له فلسطين عامة، والقدس خاصة من الفرنجة الصليبيين، ومن المغول -»

من بحث: المجاورة والمجاورون من الفصل الثاني من هذا الكتاب.

(١) أندلسيّون قاصدون إلى بيت المقدس

(٢) المُجاورون والمُجَاورةُ في بيت المقدس

(٣) مناصبُ مُتَعدّدةٌ للأَندلسيّين في القُدس

(٤) الاستِنجادُ والاستِغَاثَة

(٥) في القدس حارة المغاربة...

- زاوية المغاربة في بلد الخليل

(١)

قاصدون أندلسيون إلى بيت المقدس

في كتب التراجم والتواريخ، وفي بعض الكتب الأخرى أخبار عن العُلماء والأُدباء والفقهاء والحجّاج والتجار الأندلسيين الذين قصدوا إلى المشرق في أغراض العلم طلباً له وإعطاءً منه، وفي طلب لقاء الرّجال والرّواية عنهم، ومدّ الجسور الثقافية والعلمية بين المشرق والمغرب وفي أداء فريضة الحج والزيارة والتقديس قبل ذلك كله وبعده، إلى أمور أخرى تتلوّن بألوان مقاصد الحياة المختلفة.

وإذا كان نقصُ الأَخبار في بعض الأوقات حاصلاً في الأقطار المختلفة فإنه أكثر وقوعاً في تراث الأندلس، نظراً لبعد المسافة عن المشرق من جهة، وللنكبات التي أصابت الوجود العربي الإسلاميّ في ديار الأندلس؛ ناهيك عن الظروف المعروفة من ضياع الكتب، وتلفها أو استهلاكها بالاستعمال؛ وإجراءات محاكم التفتيش في ظلّ الدّول المتغلّبة على القطر

الأندلسي مُدّة بعد مُدّة، انتهاءً بعصر الموريسكيّين[1]، في طول الأندلس وعرضها...

وقد جمعتُ من الكتب الأندلسية، وبعض المشرقية أخباراً عن القاصدين من أهل الأندلس إلى المشرق عامّة ممّن وصلَ إلى فلسطين، وبيتِ المقدس. ولو كانت المصادر جميعاً باقيةً لأمكن رسم خريطة زمنيّة نتابع فيها هؤلاء القاصدين عصراً بعد عصر، ومدّةً بعد مدّة. ولكن الباقي بين أيدينا يكفي لرسم صورة مقاربة للأصل، تنمُّ عن العناية الأندلسية بزيارة فلسطين: ابتداءً من القدس، والمسجد الأقصى والصخرة وصولاً إلى البلدان الأخرى في ذلك القُطر الذي تلتفّ القلوبُ حوله للمعاني الدينية أوّلاً، ولمعانٍ أخرى تلخّصها أُخوّة الحياة العربية الإسلامية على امتداد التّاريخ وعلى امتداد الخريطة الجغرافية - التاريخية.

وهذه الأخبار المجموعة، والتّراجم الأندلسية المُثبتة في سجل زيارة بيت المقدس وسائر فلسطين. والمجاورة هناك تفيد الباحث في جوانب متعدّدة:

- **فهي ترصد**، ولو جزئياً، **حركة التردد بين الأندلس وقطر فلسطين**، في سياق حركة حيويّة الحياة المتواصلة المتجدّدة.

---

(١) الموريسكي: كلمة أطلقت على المسلم الذي بقي في البلاد الأندلسية التي ذهبت عنها السيادة الإسلامية، وصار تحت التدجين، وتحت القوانين الجائرة ضده هناك.

http://al-maktabeh.com

- **وهي تلقي الضوء** مع التسلسل التاريخي بالقدر المُتاح على الحركة العلميّة والفكرية والثقافية في بيت المقدس خاصة وفي بلدان أخرى كان لها أثر مهم في ذلك.

- **وهي ترصد** حركة الحياة في بلدان مشرقيّة في عز نشاطها، وتسجل أيضاً تقهقر ذلك بأسباب أهمّها العُدوان الصّليبي، والمغولي الذي أدّى إلى توقّف التطور العلميّ والفكريّ والحَضاري أو إلى تدهور الحياة جُملةً في بعض البُلدان، أو إلى خرابها تماماً، وخُصوصاً تلك التي كانت في مناطق ذات أهميّة (استراتيجيّة) يتداولها المُسلمون والفرنجة الصليبيّون، وهي تُضيف إضافاتٍ وإفادات إلى التواريخ المتعلّقة بفلسطين...

- **وهي معرضٌ** لأسماء المُنتسبين إلى قُطر فلسطين في الأعصر المتوالية؛ الذين كانوا يُحركون الحياةَ الثقافية، **ويقدّمون حصّة فلسطين من التألّق الحضاري** الذي عايَشَتْهُ.

- **وقد نجد أخباراً**، ولو مقتضبةً، تُفيد في تصوير الحياة الاجتماعيّة، وخصوصاً في ما يتعلّق برعاية أهل العلم وطلبته....

- **في الرحّالة الأندلسيّين:** أبو عبد الله محمّد بن أحمد من مُفَرّج القرطبي المعروف والده بالقنتوري. رحل سنة ٣٣٧هـ، وعاد سنة ٣٤٥هـ: حجّ وزارَ وقَدّس، ولقي العلماء في

بَلْدانٌ كثيرَةٌ!" في مصر والحجاز والشام واليمن والعراق، وروى عن الجِلّة والكبراء، وبلغت عدّة شيوخه نحو مئتين وثلاثين شيخاً. وفي أخباره أنه سمع **بغزّة، وعسقلان، وطبرية، والرّملة**،.... ومن البديهي أنّه قدّس، وجاور مدّةً؛ فإنّ رحلته امتدّت ثماني سنوات...

وقد نال ابن مفرّج لدى عودته الأندلس الحُظوة لدى الحكم المُستنصر(١)، الذي كان حين عاد هذا الرحّالة يساعد أباه عبد الرحمن الناصر، ويتولى شؤون الفكر والثقافة والمكتبات في قرطبة، فاستقضاه على عدد من المدن الأندلسيّة، وكانت وفاة ابن مفرّج سنة ٣٤٨هـ.

- **وفي ترجمته** في جذوة المقتبس أنّه سمع أيضاً **بقيسارية**، وكان في أساتذته: **بالقدس** محمد بن إبراهيم الرازي، **وبعسقلان** محمد بن أحمد بن آدم العسقلاني، **وفي طبريّة** القاضي أبو الحارث بن وديع، وفي الرملة محمد بن عبد الرحيم الهاشمي.. وغيرهم.
- **وفي ترجمة** أبي الوليد هاشم بن يحيى البطليوسي أنه رحل سنة ٣٣٨هـ، **وسمع ببيتِ المقدس** من الفضل بن عبد الله الهاشمي

---

(١) تولّى الحكم المستنصر الخلافة سنة ٣٥٠، وعاش إلى ٣٦٦هـ.

ومحمد بن إبراهيم السرّاج، وأبي سعيد محمد بن إبراهيم المقدسي، وأحمد بن محمود الشَّمعي[1].

- **وممّن دخل بيت المقدس**، وغيره من حواضر فلسطين: أبو عبد الله عُبَيد بن محمد القيسي، عُرِفَ بابن حُمَيد، القُرطبي الأندلسي. رحل سنة ٣٤٢هـ، فسمع بمصر، **وسمع ببيت المقدس** من أحمد بن محمود الشمعي، **وبعسقلان** من أحمد بن محمد بن آدم، **وبالرَّمْلة** – من أحمد بن عيسى... وسمع من غير واحد من هؤلاء الشاميّين والمصريّين، **ورحل ثانية**، ومات في عَودته من المدينة المنورة في السُّويداء، على ليلة واحدة من المدينة المنوّرة[2].

- **وفيهم** أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن القرطبي، سمع **بالرّملة وبيت المقدس**، وكانت وفاتُه سنة ٣٧٢ هـ[3].

- **ومن عُلماء الأندلس** الذين وفدوا على فلسطين أبو عثمان سعيد بن رشد العكّي، من أهل **شذُونَه**، كان مشاوراً في الأحكام. ورحل حاجّاً في آخر عمُره، فتمّم حجّة.. ودخل بيت المقدس، ثم قَدِمَ مصر مُنصرفاً، فتوفي بها سنة ٣٧٣[4].

---

(١) نفح الطيب٢: ٢١٨، وجذوة المقتبس ٢: ٧٧٠.

(٢) تاريخ العلماء والرواة ٢: ٨٨٩.

(٣) جذوة المقتبس ٢: ٥٧٢.

(٤) نفح الطيب ٢: ٥٧.

وشَذونة: كورةٌ متصلة بكورة مورور، وهي من الكُوَر المُجنّدة نزلها جُند فلسطين من العَرب[1].. وقد تكلّمتُ على الأجناد التي نزلت في بلدان الأندلس، في مكان آخر من هذا الكتاب.

وهذا العالم الأندلسيّ، يزورُ بمعنىً من المعاني ديار أجداده الذين رَحلوا إلى الأندلس، ونزلوا شَذُونَةَ - المدينة التي ينتمي إليها.

- **وفي هؤلاء** الذين دخلوا بيت المقدس من علماء الأندلس إبراهيم بن حارث الأنطي المقرئ؛ رحل إلى المشرق سنة ثمانين وثلاث مئة، فسمع بمكّة، وسمع بمصر، **ودخل بيت المقدس**، وكتب هناك، وكتب عنه بعض الناس[2].

- **وفي مَن تردّد** على عدد من بلدان فلسطين: أبو القاسم خلف بن قاسم الأزدي، من أهل قرطبة، عُرِف بابن الدبّاغ. رحل إلى المشرق سنة خمس وأربعين وثلاث مئة، **فتردّد هناك نحو خمس عشرة سنة**. - وسمع بمصر من جماعة من المحدّثين، وسَمعَ في كُوَر الشام من جماعةٍ: منهم ابن أبي الخصيب **بالرملة**، وأبي الميمون القاضي **بعسقلان**، وأبي عبد الله الهاشمي ببيتِ المقدس، وسمع بدمشق.. وسمع بمكة...

---

(١) جذوة المقتبس ١: ٢٠٨.

(٢) الروض المعطار: ٣٣٩.

وقد عُني بالقرآن، وألّف كُتُباً حِساناً.. وكتب عن ثلاثين شيخاً، وكانت وفاته سنة ٣٩٣[١].

- **وفيهم** أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن حزم الغافقي، قصد إلى المشرق، وحج وزار.. ثم سار إلى الشام، وسكن دمشق، وتولّى الحِسْبَة فيها... سمع أبو إسحاق ببغداد، وبدمشق، وبمصر، وله أيضاً سماع **بالرّملة**، وإطرابلس وغيرها[٢].

- **وفيهم** أبو عبد الله محمد بن يحيى التّميمي المعروف بابن برطال. رحل سنة ٣٤١ فحجّ حِجَجاً، وسمع **بالقُلزُم** من أبي عبد الله بن يوسف.. ودخل إلى الشّام فسمع **ببيت المقدس** من الخلنْجي **وبالرّملة** من أبي عبد الله بن محفوظ...[٣]

- **وقد رحل** إلى المشرق حسن بن نسيب بن أحمد التميمي من أهل قرطبة، فسمع بمصر، **وببيت المقدس** من أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد الخلنجي..[٤]

- **وفيهم** أبو علي الحسن بن خلف بن يحيى الأمويّ، عُرِف بابن برنجال[٥].. له رحلة حج فيها، وسمع.. وسمع **ببيت المقدس**

---

(١) تاريخ العلماء والرواة ١: ٥٤-٥٥.
(٢) جذوة المقتبس ١: ٢٥٠، والمقصود طرابلس الشام تكتب هكذا، وإطرابلس أيضاً (ياقوت ٢٦/٤ والروض المعطار ٣٩٠).
(٣) جذوة المقتبس ٢: ٧٩٢.
(٤) جذوة المقتبس ١: ٢٠٤.
(٥) نفح الطيب ٢: ٥٠٧-٥٠٨.

من أبي الفتح نصر بن إبراهيم سنة ٤٦٥، **وبعسقلان** من أبي عبد الله محمد بن الحسن بن سعد التُّجيبي.. وكانت وفاته نحو سنة ٥٠٠هـ.

- **ومن العلماء** الذين رحلوا من الأندلس على نية الحج، واغتنام الفُرصة للقاء العُلماء القاضي الشهير الشهيد أبوعلي الصَّدفي، وهو حسين بن محمد بن فيُّرة بن حيون، ويُعرف بابن سكّرة[1]، وهو من أهل سرقسطة وسكن مُرسية.... رحل إلى المشرق أوّل المحرم سنة إحدى وثمانين وأربع مئة، وحجّ من عامِه، ثم روى عن العُلماء بمكّة **وفيهم نزيلها الأندلسي آنذاك أبو بكر الطرطوشي الأندلسيّ** (ولنا عليه كلامٌ في هذا الكتاب) ثم سار إلى البصرة وبغداد وواسط (وأقام في بغداد خمس سنين) ودخل دمشق وسمع فيها من **أبي الفتح المقدسي** وغيره، ثم خرج إلى مصر فسمع بها من عدد من العلماء ثم عرّج على الإسكندرية، ووصل إلى الأندلس سنة تسعين وأربع مئة..

وهو وإن لم يذكر المقّري وقفةً له في القُدس، فقد يكون مرّ بها وزار الأقصى وقضى منه محبّةً وطلب ثواباً وأجراً. ولكن المقّري لمّا ذكر رواية ابن فيره (ابن سكّرة) عن أبي الفتح

---

(١) نفح الطيب ٢: ٩٠-٩٣.

المقدسي، تجاوز عن ذكر دخوله القدس، والأقصى، اكتفاء بما يفيد ذلك.

- **وفيهم** القاضي أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك اللّخمي الإشبيلي الأندلسيّ ... قَدِم أبو مروان حاجّاً من بلاده في البحر إلى عكّا من ساحل دمشق (الشام) ثم دخل دمشق سنة ٦٣٤[١].

- **وفي أُدَباء الأندلس** الذين رحلوا عن الأَندلس إلى المشرق أحد أبناء أُسرة سَريّة ذات شأن في جَنوبي الأندلس، من مدينةٍ عُرِفت باسم أُسرته: قلعة يَحْصُب، وتُعرف بقلعة بني سعيد هو علي بن موسى العنسي المُدلجي، أبو الحسن، وله من الألقاب المشرقية: نور الدين. وكان شاعراً ومؤرّخاً، وأديباً. صار له في المشرق صداقات كثيرة، ونفقت سوقُه عند أهل العلم وأهل السياسة. وترك مؤلفات ومصنّفات كثيرة. ونُشِر منها عددٌ، وفيها كتاب صدر بعنوان (الجغرافية).

وابن سعيد (٦١٠-٦٨٥) من رجال القرن السّابع المشهورين في المشرق وفي الأندلس وله أثر في نشر النصوص الأندلسيّة في المشرق.

---

(١) نفح الطيب ٢: ٥١٤.

وقد مرّ ابنُ سعيد **بفلسطين** أكثر من مرّة. ولا شكّ في أنه كان من زوار **بيت المقدس** ولعله أقام هناك مدّةً، نظراً لطول إقامته، وتردّده بين الشّام ومصر.

وقد ورد ذكر بُلدان فلسطين في الجزء الرابع من التقسيم الذي اعتمده[١]، فذكر أول ما ذكر من طرف سيناء: **العَريش** «كانت مدينة منيعة في طريق الرّمال.. وفي شرقيّها **غزّة**، ويقال لها: غزّة هاشم[٢]... ومن هناك يلتوي البحرُ إلى الغرب والشمال فتكون **عسقلان** في دخلة.. وهي على البحر.. وبعد عسقلان يافا من الفُرَض المشهورة[٣].. ثم يكون على السّاحل **قيسارية**، ثم تقع مدينة عكّا ركاب الفرنج ومجمع تجارتهم وحجّاجهم. ثم رجع ابن سعيد إلى الجنوب داخلاً، وذكر **التّيه**، **فأيْلَة** على رأس خَوْرِها الخارج من بحر **القُلزم**... وفي شماليها **العقبة**، والتفت إلى **الشّوبك والكَرك ومؤتة** ليذكر قبر جعفر الطيّار وقبر أصحابه رضي الله عنهم قال: وتقع **القدس** حيث الطول ست وخمسون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة، والعرض اثنتان وثلاثون درجة؛ وذكر **البحيرة الميتة**، **ونهر الأردن** الذي يخرج من **بحيرة طبرية**

---

(١) كتاب الجغرافية:١٤٩.

(٢) وفي غزة مات هاشم بن عبد مناف جد رسول الله (ﷺ)، وبها قبره، ولذلك يقال لها: غزة هاشم (ياقوت: معجم البلدان ٤:٢٠٢).

(٣) الفرض جمع الفُرْضة من البحر، محطّ السفن.

ويمرّ بالغور حتى ينصبّ في هذه البحيرة الميّتة، ثم ذكر **طبرية** وفيها عيون سخنة تغني أهلها عن الحمام وقد خربت المدينة باختلاف الملّتين عليها، قال: وهي الآن مع **عسقلان ويافا وقيسارية** في حوزة المسلمين... والغور طويل وآخره أريحا التي على أوّل البحيرة الميتة: كانت مدينة للجبّارين، وهي الآن منيعة. وما بين هذا الغور والساحل غور بَيْسان. ومَنْ أخذ على الطريق اليُسرى سار على نابلس التي جَبَلُها حجٌّ وقِبْلةٌ **للسَّمرة**[1]».

ويظهر من ثنايا الكلام معرفة ابن سعيد بهذه البلدان. ومعرفته بما ترك ذكره من سائر بلدان فلسطين، فقد ألّف كتابه - بحسب ما بين أيدينا - على الإيجاز والاختصار؛ فذكر بلداناً وسكت عن أخرى.

ونقرأ في ترجمة ابن سعيد في الإحاطة للسان الدين بن الخطيب أنه[2] «لقي بحمص، **وبيت المقدس**، وحماة أعلاماً جِلّةً، وله معهم أخبارٌ يطول ذكرها»...

---

(١) كذا رسمت، وهم السامرة، والسامريّون طائفة من اليهود شبه منقرضة تزعمُ أنها تنحدر من أصلاب يهود السَّامرة الذين لم يرحّلوا عن فلسطين عند تدمير مملكة إسرائيل القديمة عام ٧٢١ قبل الميلاد.. والسامريون يعترفون بالأسفار الخمسة الأُولى من العهد القديم.. وينكرون ما عداها (عن المورد ٨: ١٩٧)، وأكثر الباقي منهم في نابلس.

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة ٤: ١٥٥-١٥٦.

- وممّن رحل إلى المشرق حاجّاً، وطالباً للعلم والرّواية أبو **عبد الله محمّد بن عبد الرحمن.. بن فتوح.. بن الحكيم اللّخمي، الإشبيليّ** الأصل، الرُّندي ذو الوزارتين[1].

قَصد إلى المشرق، ورافق ابنّ رُشيد الفِهري في رحلته، ولمّا عاد دخل غرناطة، وألحقه سُلطانها أبو عبد الله محمد بن محمد بن نصر في كتّابه. وخدم بعده في دولة ابنه، ومات قتيلاً وهو على رأس عمله منفرداً بالكتابة (والوزارة)..

وكان ابنُ الحكيم الرّندي قد رحل إلى الحجاز الشريف من بلده على فَتَاءِ سِنّة[2] أوّل عام ثلاثة وثمانين وست مئة؛ فحجّ وزار، وجال في بلاد المشرق منتجعاً عوالي الرّواية في مظانّها، ومنقّراً عنها عند مُسِنّي شيوخها،.... وأقام بمكة شرّفها الله من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم، فأخذ بها عن جماعةٍ - ذكرهم لسان الدين بن الخطيب في ترجمته في كتاب الإحاطة - وانصرف إلى المدينة المشرّفة، ثم قفل مع الركب الشامي إلى دمشق، ثم كرّ إلى المغرب. لا يمرّ بمجلسِ علمٍ أو تعلّم إلا روى أو رُوي [عنه].

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة ٢: ٤٤٤ - ٤٤٦.

(٢) في سن الفتوّة أو: أوّل الشباب.

http://al-maktabeh.com

وقد ذكر ابنُ الخطيب العُلماء الذّين أخذ ابن الحكيم عنهم في المشرق وفيهم، الشيخ نور الدين علي بن محمد، أبو البركات الأنصاري **المقرئ بحرم الخليل**؛

- وعبد المنعم بن يحيى بن إبراهيم القرشي الزّهري **خطيب القدس**،

- والشيخ عليّ بن عبد الرّحمن بن عبد المنعم **المقدسي**؛

والإجمال الذي بنى عليه لسان الدين فقرة مشيخة ابن الحكيم ينفكّ منه: أنَّ هذا الأديب الكاتب الأَندلسي مرّ **بفلسطين وتلبّث في بعض بلدانها، وخصوصاً القدس، والخليل**، حيث لقي العلماء وروى عنهم.

(٢)

المُجاورة، والمجاورون في بيت المقدس

المجاورة، والجِوار من قول العرب: جاور بني فلانٍ، وجاور في بني فلان، أي صار جاراً لهم وتَحرَّمَ بجوارهم. وللجار عند العرب حقوق معروفةٌ مشهورة؛ والجارُ: هو منْ أجَرْتَه من أنْ يظلمه ظالم. وهو المستجير بك. والجارُ والمجيرُ والمُعيذ واحد..

والمجاورةُ: الاعتكاف في المسجد، وفي الحديث أنه (ﷺ) كان يجاور بحراء؛ وكان يجاور في العشر الأواخر من رمضان؛ أي: يعتكف.

وأمّا **المجاورة بمكة والمدينة** فيُرَادُ بها المُقَامُ مُطْلقاً غير ملتزمٍ بشرائط الاعتكاف الشرعي.

- **وقيلت (المُجَاوَرَةُ) أيضاً في من أقام في الحرم القُدْسيّ.** وقد حدّثنا الحاجُّ المُدَجَّنُ عبد الله بن الصَّبّاح الأندلسي عن مجاورته في المسجد الأقصى أربعَ سنوات مُتَوَالِيات (وسيأتي الكلام عليه).

وقد جاورَ الأندلسيُّون في المسجد الأقصى ورحاب بيت المقدس لأغراض مُختلفة، وهي جميعاً موصولةٌ بالجَوانب التعبّديّة، من: **طلب ثواب المصلّي** المؤدّي فروضه في ظلال تلك الرحاب الكريمة، **وطلب المجاهدة** في سبيل الله، وذلك على امتداد العُدوان الواسع الذي تعرّضت له فلسطين عامة، والقدسُ خاصّة من الفرنجة (الصليبيّين) ومن المغُول، وكلاهما كان شديد الوطأة، بالغ الأذى والإساءة. **وقد أثبتت التّواريخُ مشاركةَ الأندلسيّين والمغاربة إخوانَهم في المشرق الجِهَادَ في سبيل الله، والدّفاع عن المُقدّسات الإسلامية**.. وكان في أغراض المُجاورة أيضاً تلقّي العلم عن عُلماء الأقصى وسائر فلسطين، وكان فيها نشر العلم وأداء الأعمال التي يكلفون بها أيضاً.

وهناك مثال مهمٌّ من أخبار أبي بكر بن العربي في رحلته حين مكثَ في القُدس زَمناً يتلقّى العلم، ويروي عن الشيوخ، ويضيفُ إلى ما كان تلقّاه من علومٍ ودراساتٍ في ديار الأندلس (ولنا على أبي بكر كلام خاص في هذا الكتاب).

- **وممن جاور** في القدس الشريف الرحّالة الشهير ابن جُبير الكناني، وقد جاء خبر مجاورته صريحاً في ترجمته من الذيل والتكملة[1] في خبر رحلته الثالثة، فإنه وصل إلى مكة

---

(١) ج ٢/٥ ص: ٦٠٨، وكتاب (الذيل والتكملة) من مصادر هذا البحث المهمة.

المكرمة سنة اثنتين وستّ مئة، **وجاور بحرم الله الشريف طويلاً، وبيت المقدس**، ثم تحوّل إلى مصر، والإسكندرية، فأقام بها يُحَدّثُ ويؤخذ عنه إلى أن لحق بربّه.

وإضافة إلى ما ذكَرْنَا من أَسْباب المجاورة، واللحاق ببلاد المشرق، وخصوصاً الأماكن المُشَرّفَة: نورد التفات ابن جُبير شرقاً، وتفضيله المشرق على المغرب، ومن شعره في ذلك:

[من الكامل]

لا يستوي شَرَقُ البلادِ وغَرْبُهـا ... الشّرقُ حاز الفَـضْلَ باسـتحقاقِ

انظر لحال الشمس عند طلوعهـا ... زَهْرَاء تصحبُ بهجـةَ الإشـراق

وانظر لها عند الغـروب كئيبـةً ... صَـفْرَاء تُعْقـبُ ظلمـةَ الآفـاقِ

وكفى بيومِ طُلوعها عن غَرْبِهـا ... أَن تؤذن الدّنيا بوشكِ فِـراقِ! (١)

وتشوّقَ إلى أصحابٍ تَعرّفَ إليهم في مكّة المكرّمة من خلال تَشَوُّقِه إلى الشّرق عامّة:

[من الرّمل]

سِرْ بنا يا حاديَ العـيسِ عَـسى ... أنْ نُلاقـي يـومَ جَمْـعٍ سِـرْبَنا

---

(١) يشير إلى الآثار الواردة في علامات القيامة، ومنها طلوع الشّمس من المغرب بدلاً من طلوعها من المشرق.

ما عنى داعي النّوى لمّا دعا غير صَبٍّ شفّهُ بَـرْحُ العَنَـا

شِمْ لنا البَرْق إذا هبَّ وقُـلْ: جَمَـعَ اللهُ بِجَمْـعٍ شَـمْلَنا[1]

- **ومن العلماء** الذين جاوروا بيت المقدس، وكان لهم أثر في لقاء العلماء، وإفادة طلاب العلم، وفي الحركة العلمية في فلسطين خاصة والشام عامةً، ومصر: **أبو بكر الطّرطوشي الأندلسي:**

وهو أبو بكر محمّد بن الوليد بن خلف... القرشي، الفِهري، الطُّرطُوشي، شُهِرَ بابن أبي رَنْدَقَة.

ولد في مدينة طُرطوشة في شرقي الأندلس على نهر إيبرو وهي تبعد عن البحر الشّامي (المتوسط) بنحو عشرين ميلاً (في عصر أبي بكر الطرطوشي) وكانت مدينة ذات أهمية استراتيجية واقتصادية وعلمية، تقع بين مدينة بلنسية ومدينة طَرّكُونة، وكانت مسّورة بسور من بناء بني أمية، وكان فيها دار صناعة (ميناء لصناعة السّفن والقوارب) تستفيد من أشجار الصّنوبر الكثيرة في نواحيها.

ولد الطُّرطوشي سنة ٤٥٠، وتلقّى علومه في بلده، في عدد من المدن المجاورة مثل سَرَقُسْطة وكان من أساتذته أبو الوليد الباجي (ت٤٧٤هـ) حتى إذا بلغ الخامسة والعشرين، واستوى على سوق العلم رحل إلى المشرق حاجاً طالباً للمزيد من العلم والرواية.

---

(١) جَمْع: هو المزدلفة، سُمّي جَمْعاً لاجتماع النّاس به.

http://www.al-maktabeh.com

وهكذا حجّ وزار ورحل إلى العراق فأخذ عن عُلمائه، وانتقل إلى الشام نحو ٤٧٩ أو ٤٨٠[١]، وأقام في بلاد الشام عشر سنوات، وفي هذه المدّة **أقام الطرطوشي زماناً في بيت المقدس.**

وعاش الطرطوشي في الشام عيشة العابد الزّاهد. ووصفه ياقوت[٢] فقال فيه: كانت له نفسٌ أبيّة، **وكان ببيت المقدس** يطبخ في شقف[٣] وكان مجانباً للسلطان (لا يخالطه ولا يتعرض لهداياه..) واستدعاه السلطان فلم يجبه، وراموا الغَضّ من حاله فلم ينقصوه قلامة ظُفر. وذكره الحميري في الروض المعطار[٤] وقال: انتفع به جماعة، وأنجب أكثر من مئتي فقيه مفتٍ (يعني من تلامذته).

وكلام ياقوت عن الطرطوشي يشير إلى إقامة امتدت وقتاً (لم يحدده ياقوت ولا غيره من المؤرّخين) **ولكنّ حصّة بيت المقدس من السّنوات العشر التي قضاها في بلاد الشام حصة حسنة،** لقي فيها أهل العلم وطلبة العلم والرّواية، وانتفع به جماعة.

وأسهم الطرطوشي- كغيره من الأندلسيّين الذين تلبّثوا أو أقاموا إقامة دائمة في المشرق - فرفع راية التّنبيه على البِدَع،

---

(١) في تقدير الدكتور الشيال في دراسته عن الطرطوشي: ص: ٣٠.

(٢) معجم البُلدان ٤: ٣٠.

(٣) أي في وعاء من الفخّار، وكأنه يشير إلى تقَشُّفه.

(٤) الصفحة: ٣٩١.

ومُحاربتها، والكتابة في هذا الموضوع تأليفاً وتنبيهاً شفاهياً، ومتابعة عمليّة[1].

- وفيهم: **أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد البكري الشَّريشي** ولد بشريش ٦٠١[2]، ورحل إلى العراق، وسمع، واشتغل، وساد أهل زمانه،... ثم عاد إلى مصر فدرَّس في الفاضليَّة، ثم انتقل إلى **القدس الشريف فأقام به شيخ الحرم**، ثم سار إلى دمشق وتولّى مشيخة الحديث بتربة أُمّ صالح... وكانت وفاته سنة ٦٨٥[3].

- **ومن المجاورين ببيت المقدس**، والمستفيدين من الحركة العلمية وصحبة العلماء فيه القاضي **أبو بكر بن العربيّ**، وقد لقي هناك أساتذة مقاسدة وأساتذة أندلسيّين.. ولم يغادر بيت المقدس حتى استوفى العلم الذي يُريده والرّواية التي يُضيفها إلى مرويّاته.

---

(١) وله في ذلك كتاب طبع مراراً عنوانه (الحوادث والبدع).
- وقد حققت له كتابه (الدّعاء المأثور...) طبع أكثر من مرّة في دار الفكر بدمشق. وفي مقدّمتي على الكتاب مصادر ترجمته وأسماء مؤلفاته.

(٢) شريش من كورة شذونة، قريبة من البحر. اشتهرت بالزراعات الكثيرة. ونُسب إليها علماء كبار.

(٣) نفح الطيب ٢: ١٣١.

ولأبي بكر بن العربي في كتابنا وقفةٌ خاصَّةٌ عند الرحّالة الذين دَوَّنوا رحلاتهم (في ما يأتي).

وفي المجاورين **ببيت المقدس** الشيخ الإمام **أبو عبد الله محمد بن أحمد القرشي الهاشمي الأندلسي**. نزل أول وصوله إلى المشرق في مصر، ثم سافر إلى الشام قاصداً زيارة **بيت المقدس**، فأقام هناك إلى أن مات. وصُلّي عليه في المسجد الأقصى سنة ٥٩٩ عن ٥٥ سنة[١].

قال المقّري، وهو يَسْرُد خَبره: وقَبْرُه ظاهرٌ يُقْصدُ للزيارة.. زُرْتُه أوّلَ قَدماتي إلى بيت المقدس سنة ١٠٢٨(هجرية).

- **وفي المجاورين** ببيت المقدس **أبو عبد الله بن الوليد الأنصاري الأندلسي**، وهو فقيهٌ مُحَدّث، زاهد، رَحل عن الأندلس قبل سنة ٣٨٠ فتفقّه في القيروان.. ورحل إلى مكة فسمع فيها كثيراً وأقام بها مدّة، وسمع في مصر، ثم انتقل إلى **بيت المقدس**، وجاور، وكانت وفاته هناك[٢].

وفي من قَدِم إلى بيت المقدس الإمام الشاطبي فإنّه جاء زائراً قبل وفاته بثلاث سنين، فصام شهر رمضان، واعتكف.

---

(١) نفح الطيب ٢: ٥٤.

(٢) جذوة المقتبس ٢: ٤٢٠.

قال الشيخ أبو الحسن السخاوي: سمعته وقد جاءني يودّعني والرّجُل عازمٌ على المسير إلى القُدس فقال: ذكرَ اللهُ عنّا ذلك الموضع بخير، وقال: **لا أعلم موضعاً أقرب إلى السماء منه بعد مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة**[1].

(1) الذيل على الروضتين: ٥٩.

(٣)
مَناصب متعدّدة للأندلسيّين في القُدسِ

لمّا افْتتح صلاحُ الدين بيت المقدس[١] التمسَ إماماً يكون خطيبَهُ، وصاحبَ الصَّلاة فيه، فأجْمعَ مَنْ حضر هناك من العلماء والأفاضل المُشار إليهم على أنّه لا أحقَّ من أبي الحسن [**علي بن محمّد بن علي بن حميل المعافري**] بذلك المنصب، فَقدّمه لذلك؛ وإيّاه عنى عماد الدّين الأصفهاني بقوله في كتابه: الفتح القسي في الفتح القدسي:

«ورتّب السُّلطان في قبّة الصخرة إماماً من أحسن القُرّاء تلاوةً، وأزينهم طلاوة، وأنداهم صوتاً، وأسماهم في الدّيانة صيتاً، وأعرفهم بالقراءات السبع بل العشر، وأطيبهم في العرف والنشر، وأغناه وأقناه وأولاه لمّا ولاّه، ووقف عليه داراً وأرضاً وبستانا، وأسْدى إليه معروفاً داراً وإحسانا»[٢].

---

(١) سنة ٥٨٣ هجرية.

(٢) صلة الصلة ٤: ١٠٩، وقال : توفّي بعد ٥٧٠هـ.

قال ابنُ الزبير في ترجمة ابن حميل هذا إنّه عُرِفَ في المَشرق بلقب **الحاج المالقي**. وكانت وفاتُه سنة ٦٠٥ هجرية[١] وفيه عند ذكر ابن حميل «إنه من أهل مالقة: أخذ بها عن شُيوخها، ثم رحل في صدر عمره[٢] إلى المشرق، **واستقرّ بالمسجد الأقصى**، وأَمَّ به [كُلِّفَ بالإمامة] ولم يزل على ذلك إلى أن تُوفّيَ...» رحمه الله.

وممّن تولّى إمامة الصّخرة: **أبو إبراهيم إسماعيل (بُرهان الدين) بن محمد بن يوسف الأنصاري الأندلسي**، ذكره في ذيل مرآة الزمان[٣] وقال: إمام الصخرة كان رَجُلاً صالحاً كثير الخير والعبادة، أخبر عن بعض الأولياء المجاورين ببيت المقدس أنه سمع هاتفاً يقول لمّا خرب القدس:

[من الخفيف]

إنْ يكن بالشّآم قلّ نصيري ... ثم خُرِّبت واستمرّ هُلوكي

فلقد يُثبِتُ الغداة خرابي ... سِمَة العار في جباه الملوك!

وكانت وفاته ٢٣ من شهر المحرم سنة ٦٥٦.

---

(١) الذّيل والتّكملة ١: ٣١٥ - ٣١٦. (وهو ابن حميل، بالحاء المهملة).

(٢) في شبابه.

(٣) ذيل مرآة الزمان ١: ١٢٣.

ومن ذوي المناصب العالية من الأندلسيّين في فلسطين **أبو بكر محمد بن أحمد البكري الشَّريشي المالكي**، كان- كما في ترجمته في نفح الطيب[1]-: من أكابر الصّالحين المُتَورّعين ولد سنة ٦٠١ في شريش بالأندلس وتوفي بدمشق سنة ٦٨٥. قال: وله المصنّفات المفيدة.

- تولّي **مشيخة الصّخرة بحرم القُدس الشريف.**
- **وقَدِم دمشق**، وتولى مشيخة الرباط الناصري، ثم تولّى مشيخة المالكية بدمشق. وعرضوا عليه القضاء فلم يقبل. (على عادة المتورّعين والصالحين من الابتعاد عن منصب القضاء)
- **وفي أكبر** المناصب التي تولاّها أندلسي منصب قاضي القضاة (وسُمّي في الأندلس: قاضي الجماعة) الذي تولاه العالم والفقيه والمحدث والأديب الأندلسي: **أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد.... الأصبحيّ الغرناطي** الأصل، الوادي آشي، المعروف بـ **(ابن الأزرق)**[2] ولد في مدينة (مالقة) من مدن شرق الأندلس سنة ٨٣٢ (بعد وفاة ابن خَلْدُون بنحو ربع قرن) وتلقّى علومه الشّرعية واللغوية إضافةً إلى علوم أُخرى كالحساب والفلسفة والمنطق. وجمع إلى أساتذتِه الأندلسيّين

---

(١) الجزء ٢ ص ٦٢٧.

(٢) انظر نفح الطيب ٢: ٤٩، وأزهار الرياض ٣: ٣١٨.
- ومقدّمة تحقيق بدائع السلك، وروضة الإعلام، من مؤلفاته.

أساتذةً لقيهم في بلاد المغرب (مثل فاس وتلمسان وتونس). وتولّى القضاء في أكثر من بلدة ومنطقة في الأندلس، وتولّى منصب قاضي الجماعة في الأندلس لأبي الحسن بن الأحمر سُلطان غرناطة، وشهد الصراع على السّلطة بين بعض أفراد الأسرة النصرية الحاكمة، والعدوّ مُحْدِق بهم، قريبٌ منهم.

وكان ابنُ الأَزرق في الفُقهاء الذين أصدروا فَتوى لا تُبيح خروجَ ابن السُّلطان على أَبيه، وتمْنع الصِّراع على السُّلطة، سنة ٨٨٩[١]. ورأى أن يخرج إلى المغرب، والمشرق ليطلب العون والنُّصرة لمنع سقوط الأَندلس. ولم تفلح مساعيه في المغرب لظروف الاختلاف والاقتتال الدَّائرة، ولا في المشرق.

وأدى ابنُ الأزرق فريضة الحجّ، وزار المدينة المنورة والروضة المطهرة، ورجع إلى مصر يكرّر على سُلطان المماليك طلب العَوْن والنّصرة، فلم يجدْ أُذُناً صاغية، وعيّنه السّلطان قايتباي قاضياً للقضاة في بيت المقدس. فتوجّه إليه، عسى أن يجد بعد ذلك فَرَجاً لقومه وبلاده؛ ولكنّ الموت عاجَله سنة ٨٩٦ قبل سُقوط غرناطة بقليل.

---

(١) نصّ الفتوى ثابتٌ في كتاب الونشريسي في الفتاوى: المعيار المُعرب والجامع المُغْرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب لأحمد ابن يحيى الوانشريسي – الجزء ١١ – الصفحات ١٤٨ – ١٥٠.

وكان الإمام السَّخاوي[1] هو الذي قَدّم ابن الأزرق للسُّلطان وأطلعه على حقيقة علمه، ومكانته في العلوم الشرعية والعربية وغيرها؛ ولعله هو الذي نصح السلطان[2] بإعطائه تلك الرتبة وتكليفه ذلك العمل (بعد أن يئس ابن الأزرق من تلبية طلبه في تهيئة نجدة للأندلس، أو كاد...).

وهكذا وفي الثاني من رمضان سنة ٨٩٦ توجه ابن الأزرق إلى – القدس الشريف، ووصل في السابع عشر من شوّال، وتوفيّ في ١٧ ذي الحجة من العام نفسه ٨٩٦، قال الحنبلي في كتاب الأُنس الجليل: «كثر الأسف على فقده، ودُفِن خارج باب خان الطاهر بالقدس».

---

(١) شمس الدين: محمد بن عبد الرحمن السّخاوي (٨٣١-٩٠٢) أصله من سخا ومولده بالقاهرة، مؤرخ حُجّة مشهور، وعالم بالحديث والأدب والتفسير، ووفاته بالمدينة. ساح في البلدان وألف أكثر من مئتي كتاب (انظر الضوء اللامع من تأليفه ٢:٨-٣٢ والكواكب السائرة ١: ٥٣ وشذرات الذهب ٨: ١٥).

(٢) والسلطان المملوكي هو أبو النصر (الأشرف) قايتباي، حكم من ٨٧٢ إلى ٩٠١.
وقد واجه في زمانه فتناً مختلفة في الشام والجزيرة الشامية، وحدثت اصطدامات عسكرية بين جنده وجند العثمانيين. وقام قايتباي بزيارات لبلاد الشام وكان في جملة ما زاره مدينة القدس.
(ينظر كتاب عصر سلاطين المماليك لمحمود رزق سليم ٨ أجزاء، وفيه ترجمة للسلطان قايتباي في ١: ٥٢-٥٤). وتنظر مصادره ومراجعه.

وكان ابن الأزرق من الأندلسيّين الذين أغْنَوا المكتبة العربية بنتاجٍ ذي مزايا؛ ومن مؤلفاته:

١- «بدائع السّلك في طبائع الملك»، وقد حُقّق، وطبع.

٢- «روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام» وقد حقق وطبع.

٣- الإبريز المسبوك في كيفيّة أدب الملوك (ط) ذكره الزركلي.

وفاز جسد ابن الأزرق بالاستقرار في **أرض القدس المباركة** وهو ينوي الجهاد، ويعمل على بثّ العلم، ويقدّمُ خدماته النافعة للناس. رحمه الله تعالى.

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

(٤)

الاستنجاد والاستغاثة

(مَواقف، ومشاعر مُتَبادلة)

في نمطٍ من الشّعر في الموروث الأندلسي قصائد وقطع نظمها أَبناء ذلك القُطر، استنجاداً بإخوانهم القادرين على النّجدة والإغاثة. وقد بدأ ذلك - تاريخياً - بعد سُقوط دولة بني أميّة بمدّة يسيرة: مع فَقْد أهل الأندلس عصبيتهم التي التفّتْ حول وحدة بلادهم، والتصدي للعدو المُتربص في الشمال؛ ونقرأ لأستاذنا الدكتور شوقي ضيف رحمه الله تعالى[1]:

«أخذت قصائد الاستنفار والاستصراخ وطلب الغوث تتكاثر في الأندلس منذ عصر أمراء الطّوائف: «إذ انقسمت الأندلسُ الشامخة في عصر الدّولة الأُمويّة إلى أندلسات ودول وإمارات كثيرة، وأخذ أولئك الأمراء يعيشون للّهو والقصف، وقلما فكروا في مصير الأندلس، وكثيرٌ منهم كانوا يحملون

---

(١) تاريخ الأدب العربي- عصر الدول والإمارات - الأندلس: ٣٧٨.

السلاح ويسدّدونه إلى صُدور جيرانهم الأندلسيين...!» وعدّد مخازي تلك الدّويلات البائسة التي ضيّعت ذلك المجد الأمويّ، كما ضيّعَ بعضُهم أجزاءً من البلاد الأندلسيّة وألقاها في يد العَدُوّ ليضمن رياسةَ مدينةٍ أو قِطعةِ أرْض بلا قوة ولا كرامة»!!

وبعد سقوط طليطلة[1]، ومجريات أحداث مُتَوالية قَرّر أهلُ الحلّ والعقد وفُقَهاء الخَير الاستنجاد بالمرابطين من بَرّ العُدْوَةِ (في المغرب). وتقلّب على حكم الأندلس بعد توحيد القطرين الأندلسي والمغربي المرابطي أُمراء من المُرابطين. ومن بعدهم أمراء وحكام من دولة الموحّدين المغربيّة حتّى جاء الانهيارُ الكبير في أوائل القرن السّابع، وتبدّدُ دولة الموحّدين مع قوّة دول الشمال المُعادية؛ المستعينة بالقوى الفرنجيّة من سائر أوربة (الحرب الفرنجية الصليبيّة – في الغرب العربي الإسلامي).

وكَثُرَ النّداء والاستصراخ من الأندلسيّين بالأقرب فالأقرب من أهل العُدْوَة: المغرب الأقصى، والأوسط، والأدنى (تونس)، ولكن الإنْجاد لم يتمّ، وحينَ استجاب المُستنصر الحفصي (صاحب تونس) بعد استنجاد ابن الأبّار الشاعر الوزير نيابةً عن حاكم بلنسية؛ وبَعَثَ بأسطوله كانت المدينة قد سقطت، وتهاوى معها شرقُ الأندلس!!!..

---

(١) انظر فقرة (استهداف مشترك ووجدان واحد) من الفصل الأوّل من هذا الكتاب.

وحين اقتربَ القرنُ السّابع من الانتصاف كانت الأندلسُ قد ضاقت كثيراً، وبقي للعرب والمسلمين من فردوسهم الجُزْء الجنوبيّ والجنوبي الشرقي من الأندلس في دولة عاصمتها غَرناطة في ظل بني نصر أو بني الأحمر، وهم عربٌ ينتمون إلى سعد بن عبادة الأنصاري (رضي الله عنه).

وثبت الأندلسيّون بمساعدة المغرب الأقصى الذين أنشؤوا مركزَ اتّصال عسكريّ في الأندلس للإسهام في حماية الأندلس ومحاولة استرداد ما يمكن استرداده، وسمّوا المركز: مَشْيَخةَ الغُزَاة[1].

وبعد أن أدى هذا المركز مهامّ عظيمة في الجهاد والدفاع تضاءل أَثَرُه بأسباب متعدّدة، بعضها داخل في الصّراع على السّلطة. وصارت المعادلة واضحة المعالم: تضعف حال الأَندلسيين بخلافاتهم الدّاخلية، ونقص الإمداد العسكريّ وما يتبعه، من المغرب، وتَقْوى بالاتّفاق والتّعاون، وبتقوى الله في أبناء الوطن الأندلسي.

وكان القرن التاسع صعباً على الأندلس. فقد كَثُرَت الخلافات الداخليّة بين الحكّام النصريين، وكَثُرَ تدخّل دول الشمال

---

(١) للكلام تفصيل في كتاب دولة الإسلام في الأندلس: (نهاية الأندلس) للأستاذ عنان، وفي المقدّمة المطوّلة (الدراسة) على كتاب ابن الأحمر: نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان- من تأليف محمد رضوان الداية وتحقيقه - طبع دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٦.

في شؤونهم، وتضاءل أثَرُ المغاربة: إثر انقسامهم وتقاتلهم في ما بينهم.. لقد أهملوا الأندلس كما يكرّر الأستاذ محمد عبد الله عنان - «وتركُوها لمصيرها».

ولُوحظ في القرن التّاسع (الذي انتهى مع سُقوط غرناطة) التفاتُ الأندلس إلى المشرق البعيد:

١- **لضعف شأن المغرب**، وانشغاله بمشكلاته الدّاخلية الخلافية بين دول المغرب الثلاث: الأقصى والأوسط، والأدنى، وبالخلافات في دولةِ المغرب الأقصى نفسها اختلافاً شديداً،

٢- **ولتنامي قوّتين إسلاميّتين في المشرق**: دولة المماليك في معظم الشرق، ودولة الترك العثمانيين في بلاد الروم القديمة.

كان أول توجّه نعرفه من دولة غرناطة **(دولة بني الأحمر- بني نصر)** إلى المشرق بعثة للاستنجاد في سفارة سياسية سنة ٨٤٤. وقد نشر أستاذنا الدكتور عبد العزيز الأهواني قطعة وجدها من خبر هذه السفارة التي توجهت من غرناطة إلى القاهرة عاصمة دولة المماليك[١]، كانت غرناطة: تتوجّه دائماً إلى مُلوك العُدوة **(بالمغرب الأقصى)**، وقد لبث بنو

---

(١) سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري - مجلّة كلية الآداب بجامعة القاهرة (المجلد ١٦- الجزء الأول): ٩٥-١٢١.

مَرِيْن زماناً طويلاً ملاذ غرناطة وساعدها الأيمن عند الخطر الداهم[1]، ولكنّ الدولةَ المرينية كانت قد دخلت في دور انحلالها.. ومن ثَمّ فقد وَجّه سلطان غرناطة صريخَهُ إلى القاهرة. واستقبَل السّلْطان المملوكي: الظّاهر جقْمق الوفد الأندلسي المكوّن من أربعة رجال.... ووعد الظاهر بالكتابة إلى ابن عثمان (**سلطان العثمانيين**) لينجد الأندلس، واعتذر هو عن بلده بِبُعْدِ المسافة بينه وبين الأندلس. وقد سافرَ الوفدُ إلى الحجاز لأداء الفريضة. وانقطعت المخطوطة، ولعلّ هؤلاء السفراء قد جدّدوا دعوة المماليك ثانية لإنقاذ الأندلس وقت قُفولهم، فقد تعوّدنا على عودةِ الحجّاج الأندلسيّين غالباً عن طريق مصر إلى بلادهم.

وقال الأستاذ عنان بعد سَرْدِ خبر هذه الرّحلة والسفارة: إنّها لم تُسفِر عن أيّة نتائج عملية[2].

وعلى رغم شُحّ المصادر الشرقية والأندلسيّة بتفصيلات مساعي الأندلسيّين المتواصلة لاستنهاض همم المسلمين في المشرق لنجدة إخوانهم في الأرض البعيدة، فإنّ الدلائل تشير إلى أمرين:

---

(1) انظر ما كتبه الأستاذ محمد عبد الله عنان في: دولة الإسلام في الأندلس – العصر الرابع: ١٦٠-١٦٢.

(2) المرجع السابق: ٢١٨.

- **تَواصُلِ** نِداءات الأَندلسيين وتوجّهها شرقاً وغرباً؛ فكأنها النداء الأخير...

- **وتفاعُلِ** المسلمين في بلدانهم القريبة والبعيدة مع ما يجري على أهل الأندلس من الضغط، والحيف، والتّشريد، والقتل واستلاب الأراضي والنّفوس معاً!

وكان سقوط القسطنطينية عاصمة بيزنطة القديمة سنة ٨٥٧هـ (١٤٥٣م) على يد السلطان العثماني محمد الفاتح مناسبةً لتحالف الدول الإسبانية والفرنسيّة والأوروبية عامة، وتشديد هجماتها على البقيّة الباقية من الأندلس الإسلامية.

ونفيد من قراءة أ. عنان لأَحوال هذه المدّة من التّاريخ المشرقي الأندلسي المشترك، فقد قال: «انْسَابَ الفتح العثماني إلى جنوبي شرقي أوربة يكتسح في طريقه كلّ مقاومة.. وأخذت النزعة الصليبيّة تضطرم من جديد بقوةٍ مضاعفة.. وكانت مملكة غرناطة ما تزال بالرغم من صغرها وضعفها تمثّل صولة الإسلام القديمة في إسبانية، وقد تغدو في الغرب نواةً لهذا الخطر الإسلامي الدّاهم الذي بدت طلائعه في الشّرق (يعني العثمانيّين).. وكان أشدّ ما يخشونه أن تغدو غرناطةُ قاعدةً لفورةٍ جديدة»[1]...

---

(1) دولة الإسلام في الأندلس – العصر الرابع : ٢٢٠.

وفي هذه المدّة الأخيرة من حياة الإسلام في الأندلس كانت نُفوس العرب والمسلمين موصولةً بما يجري في الأندلس الباقية. وكان الحركةُ الثقافيّةُ، التجاريّةُ موصولةً أيضاً بين البلاد المشرقية وبين الأندلس، على القَدْر المتاح والممكن، وصار المشرقُ بدءاً من القاهرة محطَّ أنظار الأندلسيّين فقد كانت عاصمة أكبر دول الإسلام في الشرق آنذاك.

وقد وصلت بعثةٌ أندلسيّةٌ أُخرى أواخِر سنة ٨٩٢ هـ (١١٨٧م) ومع البعثة رسالةٌ من صاحب الأندلس يسأل سلطان المماليك إسعاف الأندلس بـ (تجريدةٍ) تُعينُه على قتال الإفرنج، فإنهم أشرفوا على أَخْذ غَرْناطة.. فلمّا سمع السّلطان ذلك اقتضى رأيُه **أن يبعث إلى القُسوس الذين بالقمامة التي بالقُدس** بأن يرسلوا كتاباً على يد قسّيسٍ من أعيانهم إلى ملك الفرنج صاحب نابل (نابلي) بأن يكاتب صاحب إشبيلية بأن يحلّ عن أهل مدينة غرناطة ويرحل عنهم؛ وإلا يشوّش السّلطان على أهل القمامة، ويقبض على أعيانهم، ويمنع جميع طوائف الفرنج من الدخول إلى القمامة، ويهدمها[1]...

ويرى أ. عنان أنّ الرّسالة كانت من حاكم مالقة (مولاي الزّغل) لا حاكم غرناطة (ابن أخي الزغل: أبو عبد الله محمد).

---

(١) المرجع السّابق: ٢٢٠.

ولكن المقصد واحد وهو استنجاد الأندلسيّين بالقوة المشرقيّة لإنقاذ الرمق الأخير.

واعتذر الأستاذ عنان عن إهمال المماليك دعوات الصريخ الأندلسي بالخَطر العثماني الداهم على الدّولة المملوكية إلى أسباب أُخرى.

- قلت: ولكن هذا الاعتذار ضعيف ويخفي الجهل من المماليك آنذاك بقراءة أحداث يومهم وغدهم.

وواضحٌ أنّ الضّغط المملوكي الموعودَ على قمامة (قيامة) القدس لم يُجْدِ نَفْعَاً. وكان الانهيارُ متواصلاً من الجهات المختلفة.

أما بعثةُ رسولَي المماليك القسّيسَيْن إلى نابُلي وروما وإشبيلية فلم تُفِد؛ ولم يجد فرديناند وإيزابيل ما يحول بينهما وبين الانقضاض على غَرْنَاطة، وهي في أوقات الغروب. قال أ. عنان: «وليس في تصرّفات حكومة مصر يومئذ (يعني دولة المماليك) ما يدلّ على أن السّلطان نفّذ وعيده باتّخاذ إجراءاتٍ مُعَيّنةٍ ضدّ النّصارى، أو ضدّ الآثار النصرانية المُقَدّسة»[1].

- وكان **الصوت الأندلسي الأخير** الذي تردّد على أسماع سلطان المماليك في القاهرة نداء قاضي الجماعة ابن الأزرق أحد

---

(١) المرجع السّابق: ٢٢٢.

علماء الأندلس الذي خرج إلى المشرق جامعاً بين الاستنجاد والاستنهاض والتنبيه على الخطر الداهم؛ وبين أداء الفريضة.

وقد لقي ابنُ الأزرق السُّلطان ذَهاباً إلى القاهرة، وإياباً إليها من الديار الحجازيّة؛ ولم يَلْقَ نداؤه صدىً، وأُرسل قاضياً للقضاة في بيت المَقدس. وقد سَردْتُ خبره في مكانٍ آخر من هذا الكتاب[1].

وكان وُصولُ ابن الأَزرق الغَرْناطي إلى بيت المقدس، ووفاته هناك **رمزاً ودلالةً على هذه المؤاخاة بين الأَندلس وفلسطين..... ومن فلسطين قَلْبَها القُدْس، وفي القُدْسِ قَلْبَها الصّخرة والمسجد الأقصى. وكان جديراً أن نقول في ألقاب ابن الأزرق: الغرناطي المقدسي.**

المشرق يلتفتُ غَرْبَاً

وفي عِزّ أَزمة المشرق بكارثة الهُجوم الصّليبي الذي يُشبه **حرباً عالمية ضدّ فلسطين والشّام وسائر المشرق الإسلامي**، وبعد تحرير القُدس، وخَوْف صلاح الدين الأيّوبي من هجمةٍ فرنجيةٍ مضادّة، فكّر في الاستنجاد بأُسطول الموحّدين ليساعدَ في تحرير السَّاحل الشّامي الفلسطيني، وبعثَ برسائل بهذا المعنى، من باب

---

(١) انظر فقرة «مناصب متعدّدة للأَندلسيّين في القُدس» من الفصل الثاني من هذا الكتاب.

الأُخوّة العربيّة الإسلاميّة، وإسعافِ القويِّ لأخيه الذي هو في حاجةٍ إلى معونته.

وهكذا، وبعد فتح صلاح الدين بيت المقدس (٥٨٣هـ - ١١٨٩م) كان يشعر بخطر التكتل الصليبي الذي ظهر بعد ذلك الفتح، وكان يخشى أن يضعف إذا لم يتداركْهُ عَوْنٌ من إحدى النّواحي، فكتب سنة ٥٨٥هـ رسالة إلى الخليفة المُوَحّدي (حاكم المغرب والأندلس) دَبّجها كاتبه القاضي الفاضل «يستنصر به على قتال الجُيوش الفرنجية الزاحفة يومئذ على مصر والشام. وسأل صلاح الدين خليفة الموحدين أنْ يمدّه بشطرٍ من أساطيله...»[1]

وكان الموحّدون مشغولين بسلسلة «من الأحداث المُزعجة في المَغرب والأندلس...» كما قال أ. عنان - ومن المُدافعة وردّ عُدوان الدّول المتحالفة ضدّ بلاد الأندلس... ولم تلق الرسالة أُذُناً صاغية.

وبعث صلاح الدّين في السنة التالية رسالةً بصحبةِ سفيرٍ ذي شأن هو عبد الرّحمن بن مُنْقذ، وكان وزيراً، **وأوضح صلاح الدين في رسالته خطر الصليبيين على بيت المقدس وبلاد الشام وسائر المشرق.** وكان الخليفة الموحدي يعقوب (الملقب بالمنصور) وقت وصول الوزير السفير في الأندلس، فأقام بناءً

---

(1) دولة الإسلام في الأندلس ٢/٣: ١٨١- ١٨٢.

على رسالة الخليفة منتظراً في مدينة فاس في سنة ٥٨٦، وطال مكثه إلى أن عاد المنصور فأكرم نُزله، وزوّده برسالة وهَدايا إلى صلاح الدّين، واعتذر عن إعارةِ أُسطوله **لانشغاله بحربٍ صليبية أخرى في الأندلس....**

قال الأُستاذ عنان وهو يَسْرُد تاريخ هذه المُدّة: ونحن نعرفُ أنّه لم يكن لهذه السّفارة نتائج عملية، ولم يحصلْ صلاحُ الدين على ما كان يرجوه من عَوْنٍ وإنجاد...

ثم قال: «**وكانت الأندلسُ تواجُه مثل الأَخطار التي كان يواجهها الشّرق الإسلاميّ من عُدوان....** وكانت الأساطيل الموحّدية التي كان صلاحُ الدّين يطمحُ بالأخصّ إلى عونها ترابط باستمرار في مياه الأندلس الجنوبية والغربية استعداداً لمؤازرة الجُيوش الموحّدية لردّ كل عدوان مُحتمل».. إلخ[١]

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس ٢/٣: ١٨٥.

(٥)

في القدس: حارة المغاربة (والأندلسيّين)

وجامع المغاربة وباب المغاربة، وزاوية المغاربة...

من معالم مدينة القُدس حارة المغاربة التي اشتهرت في تاريخ هذه المدينة بِسُكْنى الأندلسيّين والمغاربة فيها. ومن هذه المعالم: باب المغاربة، وجامع المغاربة، وزاوية المغاربة، والرّواق الممتدّ من باب المغاربة .

وقد مرّ في هذا البحث أن كلمة المغاربة تطلق على الأندلسيّين والمغاربة معاً، وفي ذلك ملمحان:

الأوّل: أن أهل المشرق يدعون من يجيء من وراء مصر غَرْباً باسم المغربي، فإذا أرادوا التخصيص كوصف العلماء والشعراء وأمثالهم نسبوا على الدقّة فقالوا: الأندلسي، وزادوا فنَسَبُوا إلى المدينة كقولهم: القرطبي، والإشبيلي، أو: الفاسي، والمراكشي.

والثاني: أنّ الأندلس والمغرب شَكّلا منذ سنة ٤٨٤ هجرية حين استولى المرابطون على الأُمور في الأندلس دولةً واحدةً عُرِفت في التاريخ بدولة المرابطين، وأصلها وبدؤها من المغرب الأقصى. وخَلَفَتْها دولة الموحدين التي انتهت سنة ٦٣٥ بنشوء دولة بني نصر أو بني الأحمر في مملكة غرناطة.

وقد كانت فَورَةُ الرّحلات المدوّنة، والعلاقات السّياسية المتشابكة أيّام الأيّوبيين والمماليك في المشرق، وأيّام المرابطين والموحدين وبني الأحمر في المغرب، والأندلس. ونجد هذا الاستعمال في أدبيّات الأندلسيّين من وقت مبكر، كقول ابن حزم القرطبي:

[من الطويل]

أنا الشمس في جو العلوم منيـرة ولكنّ عيبي أنّ مطلعـي الغـربُ!

وقول أحد الوشاحين الأندلسيين يمدح أحد الولاة بالأندلس:

[وهو خَرْجَة الموشح]

أمـــا تـــرى أحمـــد
فـــي مجـــده العـــالي
لا يُلْحَـــــــــــــــــقُ
أطْلَعَـــــــهُ المغـــــربْ
فأَرنـــــــا مثلَـــــــهْ
يـــــا مَـــــشْرِقُ!

وعُرِفَ ابنُ سعيد وهو أندلسيّ صميمٌ بـــ ابن سعيد المغربي، وهكذا.

وقد سبق الكلام في هذا الكتاب:

- على الصلة الموصولة ذات العلاقات المتعدّدة بين **الأندلس من جهة، وفلسطين، والقدس، والأقصى** من جهة أخرى؛
- وعن **قصد الأندلسيّين للأراضي الفلسطينية للزيارة والتقديس** وطلب العلم وبثّ العلم، وغير ذلك؛
- وعن **التحام الأندلسيين، والمغاربة**، كما سلف مع الجيوش الإسلامية منذ العهد الزنكي الذي تصدّى للفرنجة والصليبيين، وبلغ ذروته مع صلاح الدين، واستمرّ بعده حتى عصر المَماليك... ثم استرسلت العلاقات بين المتوطّنين المجاورين بالمماليك وبين من جاء بعدهم من العُثمانيّين...

ولم يذكر ابن العربي (أوّل رحالة بين أيدينا **قِطَعٌ** من رحلته) حيّاً مخصوصاً بالأندلسيين والمغاربة. ويبدو أنّهم حين كثروا، شكّلوا جاليةً ذات شأن سكاني (ديموغرافي) مع الغزو الفرنجي. وقد أسهموا في الجهاد مع الجُيوش المشرقيّة وقدّر بعضهم الجند «المغاربة» في جيش صلاح الدين بنحو عشرين في المئة منه.

ومن كثرة الأندلسيّين والمغاربة في القدس، ومن جرّاء إسهامهم بنصيبهم من الجهاد ونصرة جيش صلاح الدين أوصى

ابنَه السّلطان الأفضل أن يبني لهم في أرض أقطعهم إياها عقارات كافية. وكانت هذه بداية ما عُرف باسم: حارة المغاربة، وهي بجوار الجدار الغربيّ للمربّع القُدسي وهو حائط البُراق الذي ادّعى فيه اليهود ادّعاءاتهم الكاذبة.

وقد بيّنْتُ في هذا الكتاب[1] استجابة صلاح الدين للشاعرين الأندلسيين: ابن جبير، والجلياني، وتقديره لهما، وقد كانا صوتين إعلاميّين ناصحَيْن، ومحبّيْن، ومحرّضيْن على الجهاد **مبشّرين بالفتح الكبير في القدس، وفي سائر البلدان المحتلّة من الفرنجة الصليبيّين.** ومن هنا ندرك المكانة التي احتلها الأندلسيون والمغاربة في أيام صلاح الدين في القُدس، والعناية التي أحاطت بهم بعد ذلك.

حارة المغاربة

ومن أوثق الأخبار ما أورده الحنبلي في (الأنس الجليل) فقد قال:

«وأمّا ما في القدس الشريف من الحارات المشهورة فمنها حارة المغاربة، وهي بجوار المسجد من جهة الغرب، **ونسبتها إلى المَغاربة لكونها موقوفة عليهم، وسكنهم بها**[2]».

---

(١) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

(٢) الأنس الجليل ٢: ٥١.

ثم ذكر الحارة في أثناء كلامه على المدارس في القدس الشريف وقال عن المدرسة الأفضليّة [1]:

«تُعرف قديماً بحارة المغاربة، وقف الملك الأَفْضل نور الدين أبي الحسن علي بن الملك صلاح الدين، تغمّده الله برحمته؛ وقفها على فقهاء المالكيّة بالقدس الشريف، ووقف أيضاً حارة المغاربة على طائفة المغاربة على اختلاف أجناسهم ذكورهم وإناثهم. وكان الوقف (تمّ وأُنجز) حين سلطنته على دمشق؛ وكان القدس من مضافاته (تابعة للإقليم الذي يحكمه). ولم يوجد لها كتاب **فكتب بالوقف لكلّ جهة، وثبت مضمونه لدى حكام الشرع الشريف بعد وفاة الواقف**».

والملك الأفضل (٥٦٦-٦٢٢هـ تقابل ١١٧١-١٢٢٥م) هو أبو الحسن علي بن يوسف صلاح الدين بن أيوب صاحب الدّيار الشاميّة، استقل بمملكة دمشق بعد وفاة أبيه ٥٨٩هـ، وأخذها منه أخوة العزيز وعمه العادل سنة ٥٩٢ وأعطياه صَرخد (صلخد الآن). وتولّى شؤون مصر مدّةً، ثم انتهى به المطاف في سميساط، وفيها كانت وفاته [2].

---

(١) الأنس الجليل ٢: ٤٦.

(٢) قال ياقوت الحموي (٣: ٢٥٨) سميساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربيّ الفرات.. ومالكها في هذا الزمان الملك الأفضل علي بن الملك الناصر يوسف بن أيوب صلاح الدين.

وقد وُصِف في التواريخ بـــ صاحب الديار الشامية، تسجيلاً لولايته على دمشق وما كان معها من البلاد. وقال ابنُ الأثير في تاريخه، كان من محاسن الزمان، خيّراً عادلاً فاضلاً حليماً كريماً، حسن الإنشاء، لم يكن في الملوك مثله[1].

وظاهر أنّ الأفضل أنفذ وصية والده في إعمار حارة المغاربة، وفي تعزيز مكانتهم في بيت المقدس، وانسجم مع خصاله الطيّبة في تصرفه معهم.

جامع المغاربة

ذكره في الأنس الجليل[2] وقال إنه في آخر المسجد الأقصى من جهة الشرق مما يلي محراب داوود مكان معقود به محراب، وقد عُرِفَ هذا المكان بسوق المعرفة، وهذا المكان المعروف بسوق المعرفة مسجد تحت الأرض يُعرَفُ بـــجامع المغاربة، وهو مأنوس مهيب، وفي صلاة المالكيّة «قال: والذي يظهر أنّه من بناء عمر بن الخطاب (ﷺ) لما رُوي عن شدّاد أن عمر (ﷺ) لمّا دخل المسجد الأقصى مضى إلى مقدّمهِ ممّا يلي الغرب، فَحثا في ثوبه من الزّبل، وحثونا معه في ثيابنا، ومضى ومضينا حتى ألقيناه في الوادي الذي يقال له وادي جهنّم، ثم عاد

---

(١) الكامل في التاريخ ١٢: ١٦٤.

(٢) الأنس الجليل ٢: ١٥-١٦.

فَعُدْنا بمثلها حتى صلّينا فيه في موضع يصلّي في جماعة، فصلى بنا عمر(ﷺ) فيه».

قال: «وعن شدّاد أيضاً أن عمر (ﷺ) لمّا دخل المسجد يوم الفتح تقدّم إلى مقدّمه ممّا يلي الغرب. **فَيُحتمل أن يكون بناه عمر(ﷺ)، ويُحتمل أن يكون من أثر البناء الأموي**،- الذي تقدّم أنه كان في صدر المسجد من جهة الشرق إلى جهة الغرب. والله أعلم».

باب المغاربة

وهو معدودٌ في أبواب المسجد الأقصى، قال صاحب الأنس الجليل: وسُمّي (باب المغاربة) بذلك (الاسم) لمجاورته جامع المغاربة الذي تُقام في الصلاة الأولى؛ ولأنه ينتمي إلى حارة المغاربة، وهذا الباب في أواخر الجهة الغربيّة من المسجد، ممّا يلي القِبلة، ويسمّى باب النبي (ﷺ).

ونقل من الأثر، قال: «..... ثم انطلق بي- يعني جبريل (عليه السلام)- حتى دخلت المدينة (بيت المقدس) من بابها اليماني، فأتى من باب تميلُ فيه الشمس والقمر قال مؤقّتو بيت المقدس: لا نعلم بالمسجد باباً بهذه الصفة إلا باب المغاربة».

وعدّ في الأنس الجليل ثمانية أبواب، منها باب المغاربة، في الجهة الغربية من المسجد، وثلاثة أبواب في الجهة الشمالية،

فجملتها أحد عشر باباً يُتوصّل منها إلى المسجد، غير بابي: الرحمة، والتوبة، والباب المسدود في السور الشرقي. ثم أشار إلى الأبواب التي يُتوصّل منها إلى المسجد الأقصى ممّا حوله من المدارس والمنازل[1]....

وهناك متابعة في (موسوعة القدس والمسجد الأقصى المبارك) فقد قال[2]: «ويُعرف هذا الباب أيضاً بباب النبي، وباب البُراق، فإنه يُعتقد أن رسول الله (ﷺ) دخل من هذا المكان إلى المسجد الأقصى ليلة الإسراء والمعراج. وسمّي بباب المغاربة، لأنه يوصل إلى حارة المغاربة غربيّ الأقصى. ويقع هذا الباب في الزاوية الغربية الجنوبية لساحة المسجد الأقصى. وقد أُعيد بناؤه في الفترة المملوكية في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي قام بإنشاء الأروقة الغربيّة (٧٠٧-٧٣٧/١٣٠٥-١٣٣٦).

والباب من الواجهة الغربيّة معقود بعقد مُدبّب بسيط التكوين. وأما من الجهة الشرقية فهو عبارة عن فتحة مستطيلة بنسبة طول إلى عرض(٣:٢) وهو على شكل قوس موتور عليه باب خشبي بدفة واحدة، ويُفضي من الجهة الشرقية إلى دركاتٍ تقع ضمن امتداد الرّواق، وهي مؤلفة من عقد بين حجرتين، وتقوم على ثلاث دعامات، وعلى مركز الدعامة الوسطى زخرفة حجرية عبارة عن

---

(1) الأنس الجليل٢: ٣١-٣٢.

(2) موسوعة القدس والمسجد الأقصى: ١٩٧.

مربّع في وسط دائرة، ويغطّيها قبوان متقاطعان. ويجاور الباب من الجهة الشمالية مسجد صغير يسمّى مسجد البُراق، مملوكيّ البناء تمَّ إنشاؤه سنة ٧٠٧-٧٣٧. وهو مسجد بسيط ذو واجهة مربعة بارتفاع ٣ أمتار، تعلوها زخرفة خشبيّة.

الرّواق الممتد من باب المغاربة[١]:

«في المسجد (الأقصى) من جهة الغرب **الأروقةُ** مبنيّةً بالبناء المُحكم، وهي ممتدّة من جهة القبلة إلى جهة الشمال عند باب المسجد المعروف بباب المغاربة، وآخرها عند الباب المعروف بباب الناظر. وفوقه إلى قرب باب الغوانمة. وهذه الأَروقة كلّها عمرت في سلطنة الملك الناصر بن قلاوون. فالرواق الممتدّ من باب المغاربة إلى باب السلسلة عمر في سنة ثلاث عشرة وسبع مئة. والرواق الممتدّ مما يلي منارة باب السلسلة إلى قريب من باب الناظر عمر في سنة سبع وثلاثين وسبع مئة. والرواق الممتدّ من باب الناظر إلى قرب باب الغوانمة عمر في سنة سبع وسبع مئة»...

زاوية المغاربة، بأعلى حارتهم، وقف الشيخ عمر بن عبد الله بن عبد النبي المغربي المصمودي المجرد. وكان رجلاً صالحاً عمَّر الزّاوية وأنشأها من ماله ووقفها على الفقراء والمساكين(ربيع الآخر ٧٠٧) [٢].

---

(١) الأنس الجليل ٢: ٢١.

(٢) الأنس الجليل ٢: ٤٥.

- ثم قال في موضع آخر[1]:

«وزاوية المغاربة بجوار عين الطواشي. وهي على باب المسجد الشمالي بالقرب من السّور، ومنبعها من قرية مجدل فصيل بقرب مدينة سيّدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام... وهي أحسن الأعين وأطيبها ماءً».

«وأما الأبواب التي للمدينة: فأوّلها من جهة القبلة **باب حارة المغاربة**».... وعدّ صاحب الأنس الجليل عشرة أبواب[2]

وقد أضيفت أوقاف خاصة بالمغاربة، وفي أشهرها وقف قرية عين كارم، التي وقفها الغوث أبو مدين. وهو أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي، التلمساني (توفي٥٩٤هـ، تقابل ١١٩٨م) من مشاهير الصوفيّة، أصله من الأندلس، أقام بفاس، وسكن بجاية (هي الآن في قطر الجزائر) وكَثُر أتباعه حتى خافه السلطان الموحّدي يعقوب الملقب بالمنصور، وتوفي بتلمسان وقد بلغ الثمانين أو تجاوزها. وله مقام يزار في العُبّاد بالقرب من تلمسان (بالقطر الجزائري). وفي نصّ الوقف «....هذا ما أوقفه... على مجاهدي المغرب ومرابطي المغرب وطلبة المغرب وعلماء المغرب والحجاج المغاربة الزائرين العابرين»...

---

(١) الأنس الجليل ٢: ٧٨.

(٢) الأنس الجليل ٢: ٥٦.

- وقد سقطت عين كارم سنة ١٩٤٨ في يد العدوّ.
- وسقطت حارة المغاربة سنة ١٩٦٧. وسرعان ما هدمتها سلطات العدو إمعاناً في محو الأثر العربي الإسلامي عن مدينة القدس جملةً وتفصيلاً.
- ويتعرض كل شيء للتّهويد والهدم والتغيير... (أوائل ١٤٣١هـ أوائل ٢٠١٠) وهناك كلام مفصل مطول في الكتب والدوريات والوثائق الفلسطينية عن القدس، والمسجد الأقصى، والصّخرة، وسائر المعالم الإسلامية والأثريةِ نترك للقارئ الكريم متابعته في مظانّه لطوله، وحتى لا نخرج بالكتاب عن إيجازه، وقصده. ولكنّنا لا ننسى أنّ نقول إنّ حارة المغاربة.. كانت تحت نظر المغرب قبل حوادث ١٩٦٧م، وكان هو يتولّى مسؤولية هذه الأوقاف... لكن الأمر آل إلى سيطرة اليهود على حارة المغاربة وإلى تغييرهم معالم المنطقة كلها، وشطب الأسماء العربية الإسلامية، إمعاناً في التهويد.

ورجعت المسألة الآن عوداً على بدء **مسؤولية أُمّة فَقدتْ جزءاً مهمّاً من كيانها ووجودها، وأُصيبت في مقدس عظيم من مقدّساتها.** وينال **حارة المغاربة**، وكل ما يتعلق بها ما ينال المقدّسات في بيت المقدس وسائر المواقع والبلاد والمواضع في فلسطين، وبقية بلاد الشام.

وأضيفُ هنا متابعةً لما سبق في موسوعة بيت المقدس والمسجد الأقصى وفيها:

«... وحارة المغاربة يجب أن يُصنع لها **مُجسّم يجمع بين المكتوب في التاريخ، والرواية الشفوية عن بقايا النّاس** الذين عرفوا هذه الحارة بالمشاهدة ليعاد بناؤها، بعد أن يهيئ الله للقدس ناصراً، ونُحرّرها.. ذلك بأن اليهود قد هدموا هذه الحارة بعد دخولهم القدس سنة ١٩٦٧م»[١]....

زاوية المغاربة في بلد الخليل

حين ذُكرت المدارس والزوايا والمشاهد في بلد الخليل في كتاب: الأنس الجليل قال المؤلف إن من أحسنها زاوية الشيخ عمر المجرد، والمدرسة القيمرية عند باب المسجد الشمالي بالقرب من عين الطواشي، وزاوية المغاربة، بجوار عين الطواشي المذكورة.

وعين الطواشي هذه، واحدة من أعين الماء في المدينة، وهي على باب المسجد الشمالي بالقرب من السور، ومنبعها من قرية **مجدل فصيل قرب الخليل**.. وهي أحسن العيون وأطيبها ماءً[٢].

---

(١) موسوعة بيت المقدس والمسجد الأقصى ١: ٣٣٢.
(٢) الأنس الجليل ٢: ٧٨.

الفصل الثالث
رَحَلات الأنْدَلُسيّين المُدَوّنَة
إلى القُدس و الأقصى

« كانت رحلة ابنُ جُبَير الثانية من الأندلس إلى المشرق (أي تمّت أحداثها) بين سنتي ٥٨٥-٥٨٧هـ فنهض إلى الحجّ مرة أُخرى يحْدوه أيضاً فرحُه العظيم باسترداد القُدس الذي تم سنة ٥٨٣هـ، ورغبته في رؤية ثالث الحرمين الشّريفين، وقد عادت إليه الرّوح، ونفضَ عن حِياضِه كابُوسَ الفرنجة وأزال دَنَسهم ».

من الفصل الثالث من هذا الكتاب

(١) رحلة أبي بكر بن العربي

(٢) رحلات ابن جُبير الكنانيّ

(٣) رحلة الحاجّ عبد الله بن الصّباح المُدجّن

(٤) رحلةٌ مغربيّةٌ معاصرةٌ لرحلةِ البَلَوِيّ؛ والمُدَجّن:

- ابن بطوطة

(٥) رحلة القَلَصادي

(٦) النّفحاتُ الأندلسيّة الأَخيرة في بيت المقدس

(٧) تذييل: رحلة بنيامين التُّطِيلي النِّباري

al-maktabeh
www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين
http://al-maktabeh.com

(١)
رحلة أبي بكر بن العربي

أبُو بَكر في فِلسطين

كان لأبي بكر محمّد بن عبد الله بن العربيّ المعافِري الإشبيلي (٤٦٨-٥٤٣) رحلةٌ مع أبيه عن الأندلس انطلاقاً من مدينتهم إشبيلية إلى المشرق العربيّ الإسلامي. واكتسبت رحلتُه أهمّيتها، وإن كان الباقي بين أيدينا منها قليلاً، من جهتين:

- **أنّها بقلم أندلسي من أهل العلم، من بيت علم**، فلشهادته على ما يسجل قيمة، واعتبار؛
- **وأنه أضاء على القُدس، وعدد مَن بلاد فلسطين**، وسلّط الضوء على الأقصى بما فيه ومَنْ فيه. وقدّم مطالعةً في حال القُدس آنذاك؛ **والمسجد الأقصى** خاصّة.

ثم إنّ الرّحلة تذكُر عدداً من أعلام أهل الأندلس الذين أقاموا في القدس إقامةً دائمةً، أو نزلوا فيها ولازموا الأقصى معلّمين أو متعلّمين، على سبيل المجاورة.

وأبو بكر من مَواليد إشبيلية سنة ٤٧٨، وكانت آنذاك تحت حكم المُعتمد بن عَبّاد، وكانت أيضاً إحدى دُويلات الطّوائف الكبرى التي نشأت بعد انهيار الدّولة الأموية المروانيّة.

وبنو عبّاد أُسْرةٌ عربيةٌ لخميّةٌ (من لَخْم)[1] تَصَدّر أحدُ أَفرادها لإدارة أُمور المدينة وما يتبعها، وما لبثَ أنْ صار صاحب الأمر، وأنشأ دويلةً صغيرةً كَبُرَت مع الأيّام على حساب دويلات أُخرى في حروب وفتن ملأت الأندلس. وبعد كارثة ضياع «طُليطلة» سنة ٤٧٦ استنجد الأندلسيّون بدعوةٍ وحثٍّ وترغيبٍ من العُلماء والفقهاء وأَهل الحلّ والعَقد بدولة المُرابطين النّاشئة في المغرب، وأثمر هذا «التّلاحم الصّادق» بين الفريقين انتصار وقعة **الزّلاّقة**[2]، وهزيمة ألفونسو السّادس ملك قشتالة سنة ٤٧٨.

ولكنّ دويلات الأندلس رجعت إلى الاختلاف والتّنافس الضارّ بالأمّة، وكان من مَساوئ هذه الدّويلات الاستعانةُ أحياناً بالعدوّ. وبعد سنوات من ذكرى الزلاّقة عَزم يوسف بن تاشفين أميرُ المسلمين (المُرابطيّ) على جمع شملِ الأندلسِ تحت رايته، ونتج عن ذلك اعتقالُ المُعتمد بن عباد وأفراد

---

(١) من القبائل اليمنيّة.

(٢) خبر وقعة الزلاقة مفصل في الروض المعطار ٢٨٧-٢٩٢.

أسرته الذين كانوا معه، ونقلهم إلى (أَغْمات)[1] بالمغرب سنة ٤٨٤. وكانت أُسرة (ابن العربي) مُقَرّبة من ابن عَبّاد. ويبدو أنّ الفقيه عبد الله بن محمد (والد أبي بكر صاحب الرحلة) خاف من عَقابيل إنهاء دولة بني عبّاد، ومِنْ حَمْلِ شيء من تبعات سياسة بني عبّاد الأخيرة، فعزم على الخروج عن الأندلس محققاً هدفين:

- أداء فريضة الحج، والزيارة، والتقديس،
- والابتعاد عن الأندلس في تلك المدّة الحرجة (تَسَلُّم المُرَابطين أُمور السّياسة والحرب وسائر القضايا الإداريّة).

أما (الفتى) أبو بكر فقد كان وقت الانتقالِ عن الأندلس في السابعة عشرة من عمره: أخذ عن شيوخ عصره في إشبيلية، واغتنم فرصة الرحلة ليلقى عدداً من علماء المُدن التي مَرُّوا بها وهم يَرْحَلون إلى قَصْدهم في المشرق، في مدن مالَقَة، وغرناطة، والمرِيّة؛ ومن المرية أبْحَر إلى بجاية، وصولاً إلى مصر وفلسطين.

---

(١) بلدة قريبة من مراكش، ومن ورائها إلى جهة البحر المحيط (الأطلسي) السُّوس الأقصى وتبعد عن سجلماسة بثماني مراحل. كانت محبس ابن عباد وأسرته حتى وفاته. (الروض المعطار ٤٦ ومعجم البلدان ١: ٤١٢).

شهادة ابنِ العربيّ في فلسطين والقُدْس ومشاهداته.

زار ابن العربيّ مُدناً وقرىً فلسطينيّة كثيرةً؛ والباقي من رحلته يذكُر: **عَسْقَلان، والقُدس، ونابلس، وعكّا**[1]، **وطبريّة، والخليل...**

ولو اكتمل نصُّ الرحلة لقرأنا ما كتبه ابن العربي في مشاهداته في فلسطين، وعرفنا مَنْ لَقيه من العلماء والفقهاء ونُبهاء الطلبة....

وقد سَجّل ابنُ العربيّ شهادات اجتماعيّة وعلميّة وثقافيّة في المدة التي أقام فيها في القُدس وسائر فلسطين على مدى ثلاثة أعوام، من أواخر القرن الهجري الخامس؛ وَرَدَ بعْضُ هذه الشّهادات في المُلتقط من الرحلة من كتابه (قانون التأويل) ووَرَدَ بعضٌ في كتبٍ أُخرى له مثل: (أَحكام القرآن) المطبوع مراراً.

من صور المجتمع الفلسطيني

· كان ابن العربي قد أقام في مدينة نابلس أَشْهُراً، وممّا التقطه من الصُّور بعض أحوال النّساء في المدينة، وقد قال:

«ولقد دَخلت نيِّفاً على ألف قريةٍ من بَريّة، فما رأيتُ نساءً أَصْوَن عيالاً ولا أعفّ نساءً من نساءِ نابلس».

---

(١) ترد في كتب التاريخ والجغرافية القديمة برسم عكّا، وعكّة.

ابن العربي في القدس

كانت مصر حين مرّ بها ابن العربي تحت حُكم العُبَيْديّين، وكان الحاكم هو الملقّب بالمستنصر (توفي ٤٨٧)، وبعد رحيله عن مصر قال:

«**فَدَخَلْنا الأرض المقدّسة، وبلغنا المسجد الأقصى**، فلاح لي بدرُ المعرفة فاستنرْتُ به أَزْيَد من ثلاثة أعوام، وحين صلّيت بالمسجد الأقصى فاتحة دُخولي بها، عمدت إلى مدرسة الشافعيّة بباب الأسْباط فَأَلْفَيْت بها جماعة علمائهم في يوم اجتماعهم للمُنَاظرة عند شيخهم القاضي الرّشيد يحيى الذي كان استخْلَفَهُ عليهم شيخُنا الإمام الزّاهد نصر بن إبراهيم النابلسي المقدسي، وهم يتناظرون على عادتهم»...

وذكر ابن العربيّ أنّ مسألة من مسائل العلم طُرِحت في المجلس لم يعرف منها شيئاً، وأقام في المجلس حتى انتهى، وعرف جوابها بالتفصيل، فلمّا رجع إلى المنزل وقد عادت إليه همّته في زيادة الدرس والبحث والتحصيل، قال لأبيه:

«إنْ كان لكَ نيّةٌ في [تعجيل أداء فريضة] الحجّ فامْضِ لعزمك فإني لست برائمٍ عن هذه البلدةِ [لا يغادرها] حتّى أعلّم علْمَ مَنْ فيها، وأجْعَل ذلك دسْتوراً للعلم، وسلّماً إلى مراقيها. فَساعدني حين رأى جِدّي»...

ثم قال، وقد تأجّلت رحلةُ الحجاز:

«ومشيت إلى شيخنا أبي بكر الفهري[1] رحمة الله عليه وكان مُلتزماً من المسجد الأقصى - طهّره الله- بموضع يقال له الغُوير بين باب أسباط ومحراب زكريّا (عليه السلام) فلم نَلْقَه به، واقتصَصْنا أثره إلى موضع منه يقال لهُ: السّكينة فألفيناهُ بها فشاهدت هَدْيَه، وسمعتُ كلامَه فامتلأت عَيْني وأُذني منه، وأَعْلَمُه أبي بنيّتي فأنابَ، وطالعَه بعزيمتي فأجاب، وانْفَتح لي به إلى العلم كلّ باب، ونفعني الله به في العلم والعمل، وتيسّر ليَ على يديه أعْظم أمل، **فاتخذتُ بيت المقدس مَباءة**، والتزمتُ فيه القراءة»...

فقد لزم أبو بكر المجاورة، والاستزادة من العلم وبقي هناك حتى استوفى غرضه.

محاورات ومناظرات كلاميّة:

«وذكر ابنُ العربيّ الفوائد التي استفادها من حضور المُحاورات والمُناظرات في حلَقات العلم، ومدارس الحنفيّة والشافعية في القُدْس[2]، وقد كانت جلساتها يوميّة... وذكر أنّه

---

(١) هو الإمام أبو بكر الطّرطوشي الأندلسي، ولنا وقْفة عنده في هذا الكتاب.

(٢) رحلة ابن العربي: ٨١.

كان في مَنْ يُفاوض أصحاب الفِرَقِ الكلاميّة والمَذاهبِ الفقهيةِ، وبعض رجال الأديان الأُخرى (المسيحية واليهودية)، وقال:

«وكنّا نفاوِضُ الكرّاميّة[1] والمعتزلة، والمشبّهة، واليَهود... وخَاصمنا النصارى بها... وقد حضَرنا يوماً مجلساً عظيماً فيه الطّوائف، وتكلّم التُّسْتَريّ الحبر اليهودي على دينه فقال: اتفقْنا على أنّ موسى نبيٌّ مؤيّد بالمعجزات، مُعلّم بالكلمات؛ فمن ادّعى أنّ غيره نبيٌّ فعليه الدليل. وأراد من طريق الجدال أن يردَّ الدليلَ في جهتنا حتى يطّردَ له المرام، وتمتد أطناب الكلام. فقال له الفهري: إن أردت بموسى الذي أُيّد بالمعجزات وعُلّم الكلمات، وبَشّر بأحمدَ فقد اتفقْنا عليه معكم، وآمنّا به وصدّقناهُ، وإنْ أردْت به موسى آخر فلا نعلم ما هو! فاستحسن ذلك الحاضرون، وأطنبُوا في الثّناء عليه؛ وكانت نكتةً جَدليّةً عقليّةً قويّةً، فبُهِتَ الخصْمُ وانْقَضى الحُكْم»[2].

ابن العربي في عَسْقَلان

وكانت عسقلان آخر مدينة في فلسطين يُطيل فيها المُقام، ثم يتجدَّدُ عَزْمُه على الرِّحلة إلى بغداد، وكان لتلك الانطلاقة

---

(١) أتباع محمد بن كرّام (توفي ٢٥٥) يرون أنّ الإيمان هو الإقرار والتّصديق باللسان دون القلب.

(٢) رحلة ابن العربي ٨١-٨٢.

مناسبة ذكَرها، بعد الإشادة بعسقلان و«جوّها» العلمي والأدبي، قال[1]:

«وخرجتُ حينئذٍ إلى **عَسقَلان** متساحلاً[2]، فألفيت بها بَحْر أَدب يَعُبّ عُبابه[3]، ويغبُّ ميزابُه؛ فأقمت بها لا أرتوي منه نحواً من ستّة أشهر. فلمّا كان في بعض الأوان، كنتُ منقلباً عن بعض الإخوان إلى أنْ جئتُ لقَم[4] طريق وقد امتلأتْ بالنّاس، وهُم مُنْقَصفون على جارية[5] تغنّي في طاق[6]، فَوقفْتُ أطلبُ طريقاً أو أفكّر في المشي على غيره، وهي تترنّم»:

[من الطويل]

أقولُ لهـا والعِـيْسُ تُخْـدَجُ للنّـوى
أَعدّي لفقدي ما استطعتِ من الْصَّبْرِ[7]
ألـيسَ مـن الخُـسرانِ أنّ لياليـاً
تمرّ بلا نَفْعٍ وتُحْسَبُ من عُمْـري؟!

---

(١) ترتيب الرحلة:٨٣.
(٢) عن طريق السّاحل.
(٣) عبّ عباب البحر: كثر موجه وارتفع، وغبّ هناك مثل عبّ: كثر ماؤه.
(٤) اللقم: معظم الطريق، أو وسطه، أو مُنْفَرجُه أو طرفُه.
(٥) انقصف القوم: اندفعوا وازدحموا.
(٦) الطاق: عَقْدُ البناء.
(٧) الحِدج كالهودج يوضع على ظهر الدّابة. اشتقّ فعلاً من الحِدج، أي تحَضّر بذلك.

فقلت: «محمّد!» – يخاطبُ نَفْسَه–: «هذا بشهادة الله وحْيٌ صوفيّ، وهاتفٌ دينيّ. أنت المراد، وعليك دار هذا التّرداد! ارْحَلْ مِنْ حينك إلى نيّتك الأولى، وخُذ بنفسك إلى ما هو الأحْرى بك والأولى»...

وأقنع والده بالرّحلة، وكانت طريقُهم في البحر إلى عكّا، ثم خرجوا برّاً إلى **طبريّة**، فحوران، وُصولاً إلى دمشق، «....» وفيها جماعة من العلماء رأسُهم شيخ الوقت سنَاءً وسنىً، وعلماً ودِيناً: «**نصر بن إبراهيم المقدسي النابلسي**، وأصحابه متوافرون، فلزمنا شَيْخَنا نصر بن إبراهيم في السّماع»[1]..

فلقي في دمشق أستاذَهُ **المقدسي النّابلسي**، وسمع منه البخاريّ. ومن دِمَشق إلى ضُمَيرٍ[2] إلى البادية... كان طريقُهُ إلى بغداد.

البيئة العلمية في فلسطين أواخِر القَرن الخامس

في مقدّمة: «رحلة ابن العربي» دراسةٌ لمجرياتها في الأقطار المختلفة، وفيها وقفة عند البيئة العلمية التي وجدها هذا

---

(١) الرحلة: ٨٤.

(٢) بلدة تبعد نحو ٣٥كم عن دمشق على طريق الذاهب إلى حمص الآن عن يمينه. على طرف البادية، قديمة ذكرها الشعراء وفيهم المتنبي. وهي مدخل الطريق إلى بادية الشام فالعراق.

الرّحالةُ في فلسطين[1] «فالصورة التي أوردها في كتابه تدل على أنّ البلاد كانت تعجّ بالعلماء **من أهلها، ومن الوافدين عليها**. وهذا هو السّبب الذي جعله يطيل الإقامة فيها بل حَدَاهُ إلى إرجاء الحجّ. ففي القُدس كانت للشافعية وللحنفيّة مدارس. فمن مدارس الشافعية مدرسة عند باب الأسباط يرأسها الشيخ يحيى بن علي المعروف **بابن الصائغ**، ويجتمع فيها فقهاء الشافعية للدرس والمناظرة؛ **ومنهم من أهل البلد عطاء المقدسي**، ومن الوافدين مجلّي بن جميع المخزومي المصري؛ ومن مدارس الحنفية فيها مدرسة أبي عقبة **وشيخها القاضي الرّيحاني**.

أما العلماء الوافدون إلى بيت المقدس فذكر ابن العربي كثيراً منهم بالنِّسبة دون الاسم كالزّوزني والصّاغاني والزنجاني وغيرهم. وربما كان أعظم العلماء الذين لقيهم ابنُ العربي يومئذٍ بالقدس **أبا بكر الفهري الطّرطوشي** - الذي كان ينزل في موضعٍ من المسجد الأقصى يسمّى الغُوَير، بين باب أسباط والموضع المعروف اليوم بالمهد (أيام مجاورة ابن العربي).

وكذلك كان بيتُ المقدس مُلْتقى لكثير من الفرق الإسلاميّة كالكرّاميّة والمُعتزلة؛ وملتقى لعلماء الأديان الثلاثة: الإسلام والمسيحيّة واليهودية. وكانت مجالس المناظرات بين علماء الفرق والمذاهب الإسلامية أنفسهم أو بينهم وبين المسيحيّين واليَهُود معرضاً للحيويّة العلمية....

---

(١) رحلة ابن العربي: ٦٤ - ٦٥.

..... **وقد حقّقت الإقامةُ في القُدس لابن العربيّ شيئاً كثيراً** مما كانت تصبو نفسُه إليه؛ إذ **استطاع في تلك البيئة العلميّة** أن يطّلع على أغراضِ علوم ثلاثة لم يكن لقيها في الأندلس أو في طريقه خلال إفريقية ومصر، وتلك العلوم هي:

- علم الكلام؛
- وأصول الفقه؛
- ومسائل الخلاف؛

كان المغرب الإسلامي يُعْنى في دراسة الفقه بطريق التّمثيل وتلك هي الطريقة القيروانية. وكان علماء المشرق الإسلامي يهتمّون بالاستنباط واستخراج العلل وأصول الأدلة، وتلك هي الطريقة التي سمّاها ابن العربي الطريقة العراقية. **وكانت الدراسة في فلسطين، وفي القدس منها على وجه الخُصوص جَمْعاً بين الطريقتين**[1]..

وعَرض د. إحسان عبّاس ما قاله ابن العربيّ، والصّورة التي رسَمها للحياة العلميّة في بيت المقدس على ما قاله ابن البنّاء البشاري المقدسي: «إن القدس: قليلة العلماء... لا مجلس نظر ولا تدريس» واستغربه، وقال: «وموضع الاستغراب أنّ المقدسي قد كتب هذا قبل حوالي عشر سنوات من قدوم ابن العربيّ إلى القُدس،

---

(١) رحلة ابن العربي : مقدّمة المحقق: ٦٥.

وردّ ذلك إلى احتمالات منها: اختلاف وُجهة النظر. ولا شكّ في أنّ كلام ابن العربي هو الرّاجح، لأنّه دَعَم أقوالَه بالأسماء من الفُقهاء والعُلماء وبذكر مجالس المذاكرة، والحوار، والمناظرة».

وكان للقُدس، والمَسْجد الأقصى منها خاصّة، النّصيب الأكبر من إقامة ابن العربيّ ومن متابعاته الدراسية، وما يلحق بها من البحث والمناظرة، والجَدل العلمي. وفي شذرات مُتَفَرّقة في كتابه: (أحكام القرآن) إشارات وملاحظات عن كيفية تصريف أوقاته الأخرى بعد ساعات طلب العلم. فقد كان ثمّة، في غير مجالس العلم: يُصلّي بين **الباب الأخضر وباب حطّة**، أو يَخْلو للدرس في جانب من الصخرة التي تسمّى **المائدة في طور زيتا**. وفي كل مرّة كان يدخل إليها يكنس ما حول الباب لأنّه يعلم أنه لو وقع شيء تحته ولو بقدر ثُمْنِ درهم لم يستطع فتحه أحد![1]

صورة اجتماعية في القدس

شهد ابنُ العربيّ لأهل القُدس بقلّة الفضول، مقارناً إيّاهم بأهل بلده، حين وصَفَ محراب داوود، قال:

«شاهدتُ محرابَ داوود عليه السّلام في بيت المقدس بناءً عظيماً من حجارةٍ ضَلْدةٍ لا تؤثر فيها المعاول، ويُرى له ثلاثة أسوار، لأنه في السّحاب أيام الشتاء كلّها لا يظهر لارتفاع

---

(١) أحكام القرآن : ١٢٩٧، والعَرْض من مقدّمة رحلة ابن العربي: ٦٦ -٧٧.

موضعه وارتفاعه في نفسه: له باب صغير ومَدْرَجة عريضة، وفيه الدور والمساكن، وفي أعلاه المسجد، وفيه كوّة شرقية إلى المسجد الأقصى في قَدْرِ الباب...

- وفيه نجا من المُسلمين حين دخَلها الروم، حتى صالحوا على أنفسهم بأنْ أسلموه إليهم....

ورأيت فيه غريبة الدّهر، وذلك أن ثائراً ثار به على واليه وامْتَنع فيه بالقُوت[1]، فحاصَره وحاول قتاله بالنّشّاب مُدّةً، **والبَلد على صغره مُستمرّ على حاله. ما أغلقت لهذه الفتنة سُوق، ولا سار إليها من العامّة بشر، ولا بَرَز للحال من المسجد الأقصى مُعتكف،** ولا انقطعتْ مناظرةٌ، ولا بَطل التّدريس. وإنّما كانت العَسكريّةُ قد تفرّقت فرقتين يقتتلون وليس عند سائر النّاس لذاك حركة. **ولو كان بعض هذا في - بلادنا لاضطرمتْ نارُ الحربِ في البعيد والقريب ولانقطعت المعايشُ، وغُلّقت الدّكاكين، وبطل التّعامل لكثرةِ فضولنا وقِلّة فُضولهم!**[2]

من فلسطين إلى دمشق وغيرها

- وبعد هذه المرحلة الغزيرة الفائدة التي أمْضَاها ابن العربي في **فلسطين، والقُدس، والمسجد الأقصى**، في لقاء العُلماء والرّواية عنهم وفي حضور المُحاضرات والمُناظرات والمُشاركة فيها،

---

(١) أي معه من القوت والعتاد ما يكفيه زمناً طويلاً.
(٢) أحكام القرآن: ١٥٨٦.

وبعد المناهج الجديدة التي استفادها في هذه الديار المباركة، أصْعد ابنُ العربيّ إلى دمشق فأخذ فيها عن عَدد من الشيوخ فيهم أستاذه المقدسي النابلسي المذكور آنفاً، ثم قصد إلى العراق ليوسّع دائرة ثقافته، ومَرْوِيّاتِه، ولقاءاته بأهل العلم والفكر.

لقد رجع ابنُ العربيّ، بعد رحلته المؤيدة إلى الأندلس، وقد اجتمع له من علم المغرب والمشرق، وبرز في أهل زمانه في الأندلس والمغرب، وقد اجتمعا تحت راية واحدة، وتداولها على أيّام ابن العربي المُرابطون فالموحّدون. وكانت له أيّام الموحّدين مكانةٌ في الناس، ومكانةٌ عند الحاكم أيضاً.

وبقيت ذكرياتُ القُدس، والأَقْصى، وغيرهما من أرض فلسطين ماثلة في كتُبه، وأَخْبارِه، ورحلتِه، قويّة بارزة. ولا شك في أنّه غذّى بها أفكار أصحابه وتلامذته، مثلما زيّن بها بعض كتبه.

- وأبو بكر بن العربيّ من كبار فقهاء الأندلس وعُلمائها، قاضٍ من حُفّاظ الحديث، بَرع في الأدب، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين وصنّف كتباً في الحديث والفقه، والأصول، والتفسير، والأدب، والتاريخ. وولي قضاء إشبيلية.

وكانت وفاته قُرب مدينة فاس بالمغرب، دُفِنَ بها سنة ٥٤٢هـ (١١٤٨م)[١].

---

(١) وفيات الأعيان ١: ٤٨٩، ونفح الطّيب ١: ٣٤٠، والمغرب في حُلى المغرب ١: ٢٤٩، وقضاة الأندلس (المرقبة العليا) ١٠٥....

ومن مؤلفّاته: العواصم من القَواصم[1]، وأَحْكام القُرآن، وعارضةُ الأَحْوَذي في شرح سُنن الترمذي، وقانون التّأويل، وهي مطبوعة.

وله كتب أخرى بين مخطوط ومفقود.

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

(١) كتابه العواصم من القواصم من أهم الكتب في بابه: وفيه تأريخ دقيق، ورؤية علميّة منهجيّة، ودفاع عن صحابة رسول الله (ﷺ). (طبع بالجزائر تاماً في جزأين) واشتهر مختصر منه طبعته المكتبة السّلفية ثم صدر تاماً في جزأين محقّقاً.

(٢)
رحلات ابن جُبير[١]

الرحلة الأولى

خَرج ابن جُبير من الأَندلس مُيَمّماً شطر المشرق في شتاء سنة ٥٧٨ (يُوافق شباط ١١٨٣) في صُحبة صديقٍ له من المُشتغلين بالطبّ هو: أحمد بن حسّان. ووصل إلى الحِجاز في ربيع الآخر ٥٧٨ (٢٦ تموز ١١٨٣م) فأدّى الفريضة: حجَّ واعتمر. وزار المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسّلام، وخرج إلى العراق فوصل إلى الكوفة في المحرّم ٥٨٠. ومن بغداد رحل إلى دمشق مارّاً بتكريت والموصل، ونصيبين،

---

(١) ورد اسم الرحلة في مقدمة مخطوطتها الوحيدة: «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» وورد في ختامها أنه: «اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك» وقال كراتشكوفسكي إنّ العنوان قد يكون: رحلة ابن جبير أو رحلة الكناني.
- (انظر تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس: ٤٣٠).

ورأس العين، وحرّان ومَنْبَج، وحَلب، وحماة، وحمص. ثم أقام في دمشق نحو سبعين يوماً، واستأنس بهذه المدينة كما يأنسُ الأندلسيّون عادةً بدمشق والشّام (وقد وقفنا عند هذا الملمح في هذا الكتاب) ووصَل إلى عكا، وأبْحَر منها في رجب ٥٨٠هـ (تشرين الأوّل ١١٨٤) في سفينة جنويّة: ومرّ بصقليّة (مسّينة خاصة) في رمضان ٥٨٠هـ وأقام عشرة أيّام وجال في عدد من المُدن الأُخرى هناك، ثم عاد إلى الأندلس في مركبٍ جنويّ آخر، فوصَلَ إلى قَرْطاجَنّة[1] في المحرم سنة٥٨١هـ (نيسان١١٨٥) حتّى دخل غرناطة.

لقد كان عُمْرُ ابنِ جُبَيْر حين قام برحلته في حدود ثمان وثلاثين سنة: رجلاً علّمته التجارب، وانتحلَ مبادئَ وقيماً لا يستطيع التخلّي عنها، وكوّن لنفسه علاقات وصَداقات، وطَبَعَتْهُ الأندلسُ بطوابعها،... وكان متصوّفاً تَصَوُّفاً هادئاً مؤسّساً على الوَرع والتّقوى والاتّزان[2].

---

(١) تُعرف تمييزاً عن مواضع أخرى بالاسم نفسه بـقرطاجنة الخلفاء. وهي مدينة من بناء العرب القُدامى الفينيقيين قبل الإسلام بزمان طويل. وهي من كورة تُدمير، وتعدّ ميناءً لمدينة مُرسية من شرق الأندلس. وفي الروض المعطار ٤٦٢: بقرطاجنة ميناء ترسي فيه المراكب الكبار والصغار.

(٢) مقدّمة مجموع شعره : ١٦.

وكانت رحلةُ ابن جُبَير البالغةُ الأهميّة من نَوَاحٍ كثيرة، في مُدّة ذاتِ خطرٍ وشأنٍ في حياة العربِ والمُسلمين: كانت بلاد الشام عامّة، وفلسطين خاصّة مجالاً للحَملات الصّليبيّة الباغية. تكوّنت فيها دويلات و«مُستوطنات!» ونال المسلمين من بطشهم وأذاهم وقتلهم ما لا يُوصف ولا يُحْصى. وكان عماد الدين ونور الدّين وآل زنكي عامة قد مهّدوا طريق الجهاد، وتنظيم محاصَرة الصّليبيين ومطاردتهم، وإرغامهم على العَودة من حيث أَتَوا، وكان الحاكم في مصر والشام والحجاز ومناطق أُخرى في الشرق (حتى اليمن) هو: النّاصر لدين الله صلاح الدّين يوسف بن أيّوب رحمه الله تعالى.

وكان أول التفاتٍ من ابن جُبير إلى صلاح الدين رسالة (قصيدة شعريّة مُطَوّلة) رفعها إليه يشكو من جَوْر رجال المَكْس (الجمرك) في الإسكندرية، الذين أساؤوا في شِدّة الأَخْذِ والاستيفاء من جهة، وفي إزعاج الحُجّاج وإيذائهم بالتّفتيش الشخصي الشّنيع رجالاً ونساءً؛ «ونفر ابنُ جبير من تلك المعاملة، وفارَق هدوءه، واستَرْجَع غضبه المغربيّ الحُرّ الذي يأبي الضيم»[1] وقدّر أنّ ما

---

(١) مقدّمة مجموع شعره: ١٨، للدكتور إحسان عَبّاس رحمه الله.
– قلت: في المأثور الشعبي في بلاد الشام أن المغربي (ويدخل في ذلك الأندلسي) إذا مال إلى الغضب كان غضبُه سريعاً شديداً. ويُضرب بذلك المثل.

جرى كان من طمع جماعة من الموظفين وأن صلاح الدين لا يعرف ذلك، وأنه لو عَرَف لما قَبِلَ منهم ما فعلوه، ومن شعره في هذا الموضوع:

[من المتقارب]

يُعنَّـفُ حُجّـاجُ بيـتِ الإلـهِ ... ويَسْطُو بهمْ سـطوةَ الجـائرِ

ويكـشفُ عمّـا بأيـديهمُ ... وناهيك من مَوْقـفٍ صـاغرِ

وقد وقَفُوا بعـدما كُوشِـفوا ... كأنّهُمُ فـي يَـدِ الآسِـرِ!....

... وقد وصَل النّداء إلى صلاح الدين «وأَعْفى المغاربةَ من المكُوس وهيّأ لهم النُّزُل (الفنادق) الصّالحة لنزولهم، وتَوسّعَ في إكرامهم في أُمورٍ شَتّى»[1].

... والتفت ابن جُبير إلى مدح صلاح الدّين، والثناءِ عليه، وتشجيعه على متابعة حرب الفرنجة الصليبيّين، والدّعاء له بالنّصر المؤزّر.

ورحلةُ ابن جُبير كانت معرضاً لتدوين ملاحظات شاهد عيان أيّام الحُروب الصليبيّة، وكانت بشهادة أحد المؤرخين المعاصرين المتميّزين[2] خير ما أتى به شاهد عيان ممّن كتبوا عن الحروب الصليبيّة على إطلاق، ومن سعيد الاتّفاقات

---

(١) مقدمة مجموع شعر ابن جبير: ١٩.

(٢) هو الدكتور حسين مؤنس.

(المصادفات) أنّ رحلته الأُولى - وهي التي وصفها - وقعتْ في فتْرة حاسمة مشرقة من تاريخنا، فقد كان السلطان آنذاك صلاح الدين الأيّوبي، وكان يستجمع قواه لاستعادة بيت المقدس، وكسَر ظهر القُوّة الصليبيّة في الشام. وقد أعطانا ابن جبير صورة صحيحةً محايدةً لذلك البَطل الإسلاميّ الأكبر تُعَدّ من وثائق التاريخ[1].

ونقرأ في الرّحلة، من كلامه على صلاح الدين، والرّحالةُ مقيمٌ في دمشق مطمئن بين الأندلسيّين والمغاربة فيها، مسرور بحسن معاملة دمشق والشام لبني بلاده:

«وقد تقدّم الذِّكْرُ أيضاً في غير ما موضعٍ من هذا التّقييد (يعني رحلته) عن حُسن سيرة سُلطان هذه الجهات: صلاح الدّين أبي المظفّر يوسف بن أيوب، وما له من المآثر المأثورة في الدّنيا والدّين، ومُثابرته على جهاد أعداء الله، لأنه ليس أمام هذه البلدة (دمشق) بلدةٌ للإسلام. والشام أكثره بيد الإفرنج. فسَبّب الله هذا السلطان رحمةً للمسلمين بهذه الجهات، فهو لا يأوي لراحةٍ ولا يُخْلدُ إلى دَعَةٍ، ولا يزال سَرْجُه مَجْلِسَه![2]

إنّا بهذه البلدة (دمشق) نازلون منذ شَهريْن اثنين وحَلَلْناها وقد خرج لِمُنَازلةِ حِصن الكَرك، وقد تقدّم الذِّكْرُ أيضاً له. وهو عليه

---

(١) تاريخ الجغرافية والجغرافيّين في الأندلس: ٤٥١.

(٢) كناية عن الاستعداد الدائم للجهاد، ولقاء العدوّ، حتى لا يُباغته ذلك العدوّ، ولا يأخذ المُسلمين على غِرّة.

محاصرٌ له حتى الآن. والله تعالى يُعينهُ على فتحه. واسترسل ابن جُبَير في ذِكر مآثر صلاح الدين ومَناقبه كما سمعها من أهل دمشق: (العُلماء منهم والفُقَهاء) وكانت ملخَّصةً في ثلاث:

- الحِلم (فالحِلم من سجاياه...)
- والكَرم،
- والعَدْل؛

وقال إن حِلْمَهُ حِلمٌ أحْنَفيّ (يماثل حلم الأحنف بن قيس وكان يُضرب به المثل في ذلك)، وكَرَمهُ رشيديّ أو جعفري (مثل كرم الرّشيد أو جعفر البرمكي) وعدله مَقْصِدٌ عُمَريّ (يقتفي فيه أثر عمر بن الخطاب (ﷺ) [1].

لقد عبّر ابن جبير عن قمّة الالتحام بين الأندلسية والفلسطينية الشامية: ائتلافاً مع الحاكم الصالح، ومشاركةً لإحدى أكبر قضايا الأمّة (الهجمة الصليبية الفرنجيّة)، وانتماءً للدولة العربيّة الإسلاميّة الواحدة، وصدوراً عن «روح المواطنة» الكاملة الأركان، كما نقول بلغة اليوم.

رحلة ثانية لابن جُبَير بعد تحرير القدس

عاد ابن جُبَيْر من رحلة الحَجّ الأولى، وفي نفسه غُصّة **من عدم تمكّنه من زيارة القدس والأقصى**، والصّلاة في تلك البقاع

---

(١) الرحلة: ٢٥٥-٢٥٦.

المُطَهّرة؛ فقد كانت القُدس أسيرةً تحت احتلال الفرنجة (الصّليبيّين). فلمّا فُتحت القُدس إثر انتصار حطّين المُدَوّي، وعادت إليها بشاشَتُها القديمة، ورُدّت إليها الرُّوح اتخذ ابن جُبير قراره، على البُعْد. ونَتْرُكُ الكَلام للمؤرّخ ابن عبد الملك المراكشي[1] ليُضيء هذا الخبر؛ قال:

«**ولما شاع الخَبَرُ المُبْهِجُ المسلمينَ جميعاً حينئذ بفتح بين المَقْدس على يد السّلطان النّاصر صَلاح الدّين** أبي المظفر يوسف بن أيّوب بن بوري، رحمه الله، وكان يوم فتحه يوم السّبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب ثلاث وثمانين وخمس مئة، كان ذلك من أقْوى الأَسباب التي بعثتْهُ على الرّحلة الثانية. فتحرّك لها من غَرْناطة أيضاً يوم الخميس لتسعٍ خلوْنَ من ربيع الأوّل من سنة خمسٍ وثمانين؛ قال ابن جُبَير كما روى خَبره المراكشي: وقضى الله برحمته لي بالجمع بين زيارة الخليل (عليه السلام)؛ وزيارة المصطفى (ﷺ) وزيارة المساجد الثلاثة في عامٍ واحدٍ متوجّهاً، وفي شهر واحد مُنْصَرِفاً قال المراكشي: ووصل إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خَلَتْ من شعبان سَبْعٍ وثمانين».

وكان صلاح الدّين قد رتّب أحوالَ الدّولة في مصر الشام وما وراءهما[2] بعد وفاة نور الدين زنكي (٥٦٩ هجرية)

---

(١) الذيل والتكملة ٢/٥: ٦٠٥-٦٠٦.

(٢) دانت لصلاح الدين البلاد من آخر حدود النوبة جنوباً وبرقة غرباً إلى بلاد الأرمن شمالاً وبلاد الجزيرة الشامية والموصل شرقاً.

وانصرف إلى عملين جَدّيين: الإصلاح الدّاخلي (وكان يتردّد بين القُطرين مصر والشام) ودفعُ غارات الصليبيّين ومهاجمة حصونهم وقلاعهم في بلاد الشام. واشتدّت حملاته بعد مغادرته مصر ٥٧٨ وشغَله قتالُ العدوّ بقيةَ حياته. وكان أعظم انتصار له على الفرنج في فلسطين، والساحل الشّامي يوم حطّين الذي تلاه استرداد طبريّة وعكا ويافا إلى ما بَعد بيروت، ثم افتتاح القُدس سنة ٥٨٣..[١]

- ومن نتائج هذه المعركة القضاء على دُويلة الكَرك وصاحبها الخبيث، قال ياقوت الحموي:[٢]

«كان صلاح الدين يوسف بن أيّوب قد أَوقَع بالإفرنج في منتصف ربيع الآخر سنة ٥٨٣ وقعةً عظيمةً مُنْكرة، ظفر فيها بملوك الإفرنج ظفراً كان سَبباً لافتتاحه بلاد السّاحل، وقتل فرعونهم أَرْناط صاحب الكَرك والشّوبك...»[٣]

- والشوبك بلدة قرب الكرك، وفي ياقوت ٣/٣٧٠ «قلعة حصينة في أطراف الشام بين عَمّان وأَيْلة والقُلزم قرب الكرك».

---

(١) من ترجمة صلاح الدين في الأعلام ٨/٢٢٠.

(٢) معجم البلدان: (حطين) ج٢ ص: ٢٧٤.

(٣) مدينة، أصلها قلعة كبيرة حصينة (هي الآن في شرق الأردن- المملكة الأردنية الهاشمية) احتلها الصليبيون وكان فيها طاغية اسمه أرْناط (كما عرّبه العرب). في جبالها بين أيلة وبحر القلزم (الأحمر) وبيت المقدس، وهي على سنّ جبل عالٍ تحيط بها أودية إلى الجليل جهة الربض...

كانت رحلة ابن جبير الثانية بين ٥٨٥ و٥٨٧ (١١٨٩-١١٩١م) فنهض إلى الحجّ مرةً أخرى، يَحْدوه أيضاً **فَرحُه العظيم باسترداد القدس** الذي تم سنة ٥٨٣ ه(١١٨٥م) ورغبته في رؤية ثالث الحرمين الشريفين، وقد عادت إليه الروح، ونفض عن حياضه كابوس الفرنجة، وأزال دنسهم.

وعاد ابن جُبير بعد الحج والزيارة والتّقديس إلى الأندلس، وانتقل من غَرناطة إلى مالقة، ثم رحل إلى سبتة في المغرب، واستقرّ في فاس يُقرئ ويسمع حديث رسول الله (ﷺ)، ويعلّم، ويلقى تلامذته وأصحابه.

وهذه الحركة المباركة التي تحرّكها ابنُ جبير قصْدَ زيارة القدس بعد التحرير، والوصول إلى الصخرة والأقصى وسائر المشاهد في فلسطين كانت مطمح كثير من الناس القادرين على السَّفر والقصد إلى تلك الدِّيار؛ وقد سجل القاضي مجير الدين الحنبلي هذه الظاهرة، عند ذكره يوم الفتح؛ الذي كان في السابع عشر من رجب الفرد من سنة ٥٨٣هـ، وفيه[١].

«**ذكر يوم الفتح**، وهو يوم سابع عشري رجب واتّفق فتح بيت المقدس في يومٍ كان مثلَ ليلةِ معراج النبيّ (ﷺ)، ورُفعت الأعلام الإسلاميّة على أسواره، وجلسَ السّلطانُ للقاءِ الأكابر والأمراء

---

(١) الأنس الجيل ١: ٣٣٠.

والمتصوّفة والعلماء، وهو جالسٌ على هيئة التواضع، وعليه الأبَّهة والوقار، وحوله أهلُ العلم والفقهاء، وعليهم السكينة والجلال.

وقدْ ظهرَ السّرور على أهل الإسلام بنُصْرَتهم على عَدوّهم المخْذول. وزُيّنت بلاد الإسلام لفتح بيت المقدس؛ وتسامع الناس بهذا النصر والفتح، فوفدوا للزيارة من سائر البلاد».

وكان مجيء ابنُ جبير من أرْض بعيدة لرؤية الأقصى والفَرح بالنّصر والصلاة في الأرض المباركة، وتهنئة المجاهدين بما صنعوا للمُسلمين. وكانت المناسبةُ جديرةً بهذا السّعي، وتلك المشقة.

ورحلة ثالثةً

بعد رحلة ابن جُبير الثانية وعودته إلى الأندلس سكن غرناطة ثم مالقة بالأندلس، ثم فاس، ثم سَبْتَة في المغرب؛ منقطعاً إلى إسماع الحديث، والتصوّف، وتروية ما كان عنده؛ وفضله مع ذلك كما وصفه المراكشي، يزيدُ، وورعُهُ يتَحقّق، وأعمالُهُ الصالحة تزكو[1].

وكانت رحلته الثالثة من مدينة سَبْتَة، بعد وفاة زوجه الفاضلة: عاتكة، المدعوّة بأمّ المجد، ابنة الوزير الحَسيب أَبي

---

(١) الذيل والتكملة ٢/٥ : ٦٠٦، وقدّم بعض المعاصرين سبتَة على فاس.

جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوَقّشي بأيّام. وكانت وفاتُها يوم السبت رحمها الله، لعشر خلون من شعبان أحد وستّ مئة (٦٠١) بعد زَمَانةٍ طاولتها مُدّةً. ودفنت يوم الأحد بعده. [والزمانة: المرض المزمن].

وكان ابن جُبير مُحبّاً لزوجه، مُكرِماً لها. وبعد وفاتُها قال ابن جُبير: من عجائب اتفاقات الأقدار الباعثة على الاعتبار أنْ كان تجهيزها إليّ [العُرْسُ] في الحادي عشر من شعبان سبعين وخمس مئة فوافق تجهيزُ الحياة تجهيز الممات:

[من البسيط]

..... **وليلةُ القَبْرِ تُنْسِي ليلةَ العُـرُسِ!**

وهكذا، خرج ابنُ جبير من الأندلس والمغرب بعد وفاة زوجه عاتكة، ووصل إلى مكّة المُكرّمة سنة اثنتين وست مئة (٦٠٢) **وعَرَّج على القُدس فجاورَ فيها** بعد أنْ جاور في البيت الحرام. وتحوّل بعد ذلك إلى الإسكندرية، وهي مدينة «طالما أحبّها وأطال في وصفها» وأقام بها «يحدّث ويؤخَذُ عنه إلى أن لحق بربّه»[١].

قال الدكتور شوقي ضيف:[٢]

---

(١) المصدر السابق: والزمانة: المرض المزمن العُضال.

(٢) الرّحلات: ٧١. قلت: وقد حرّفوا اسم الإمام الطرطوشي في الإسكندرية أيضاً، وقالوا فيه: سيدي الطشطوشي.

«ويغلب أن يكون مسجد سيدي جابر بها – يعني في الإسكندرية – مسجده، وأن يكون العامّة حرّفوا اسمه مع الزّمن».

وهكذا أَتمّ ابن جُبير حجّه وعمرته وزيارته مدينة الرسول وجواره هنالك **بالمجيء إلى بيت المقدس والأقصى ومسجد الصَّخرة**، وشفى نفسه المُؤمنة بلقاء المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ إليها الرحال. وتكلّف رحلة خاصة، وهي الثانيةُ، **ليزورَ القدس بعد التحرير، وطرْدِ الفرنجة الغاصبين** الذين قَتَلُوا العباد، وأَفْسَدوا البلادَ؛ ثم قُتلوا، وأُخرجوا مذمومين مدحورين تتردّد في آذانهم نداءاتُ المآذن، وتُلاحقهم أسلحة المجاهدين.

وكانت آثاره المكتوبة نثراً وشعراً من الشّواهد ذات الأهميّة في الجهاد في فلسطين وبلاد الشام، وفي وحدة قضايا العرب والمسلمين غرباً وشرقاً على امتداد الدولة العربيّة الإسلاميّة.

(٣)
رحلة الحاج عبد الله بن الصباح الأندلسي

في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري كان للأندلسي المدجّن عبد الله بن الصباح رحلة من أرضٍ أندلسيّة واقعة تحت الاحتلال إلى المشرق العربيّ الإسلاميّ: أدّى فيها فريضة الحجّ، وزار المدينة المنوّرة على صاحبها أفضل الصّلاة والسّلام، وأكمل قَصْدَهُ، **فمضى إلى القدس**، وصلّى في المسجد الأقصى، وجاورَ مدّةً؛ فكان من الرَّحالة الذين زاروا المدن الثلاث: مكّة المكرّمة، والمدينة المنوّرة، والقُدس الشريف.

وصاحب هذه الرحلة خرج من مدينة شاطبة أو من قرية مجاورة تابعة لها، كما استظهر محقق الرّحلة[١] وكانت شاطبة

---

(١) أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار: رحلة المدجّن الحاجّ عبد الله الصبّاح (النصف الثاني من القرن الثامن الهجري) ص:١١ حققه صديقنا العلاّمة أ.د. محمد بنشريفة.

عند خروج الحاج عبد الله من بلده خارج الأراضي الإسلامية الباقية للمُسلمين في الأندلس. فإنّ شاطبة سقطت، وخرجت عن السّيادة العربية الإسلامية سنة ٦٤٤، وتهاوى معظم شرق الأندلس في تلك المدّة.

ولقّب نفسه في كتابه بالمدجَّل (كذا باللاّم) وحقيقة الكلمة (مُدَجّن)[١]: وكانت تُطلق على من يَبْقَى في البلاد الأندلسيّة المحتلّة. كان الأندلسيون يُضْطَرُّون إلى مُغادرة بلادهم المحتلّة، لأنّ المحتلّين على اختلافهم كانوا يلحسون حبر المعاهدات التي يُبرمونها مع المُسلمين بعد ساعات، أو أيامٍ قليلة؛ عدا استثناءاتٍ محدودةٍ مكاناً وزماناً؛ لا تؤثر في الصورة العامّة الشائهة. وأين معاملتنا من معاملتهم!!!

وباستنتاجات مُتَعدّدة قَدَّر محقق الرّحلة أن الرحالة قام بها في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، وأنّها دُوّنت في آخر هذا القرن أَو أَوائل القرن التّاسع، وأَنّ ذلك كان في مدينة وهران بالقطر الجزائري.

وهذه الرحلة «متميّزة: فقد أَلَّفها مُدَجّن أندلسيّ من أهل القرن الثامن الهجري وأوّل القرن التاسع: عاش زمناً بين المُدّجّنين في شرق الأندلس، ثم خَرج من بلاد المُدجّنين بِنِيّة

---

(١) من الحروف التي يقعُ بينها تبادل أحياناً في العامّي والفصيح: ل، ن، ر. ومنه جبريل وجبرين وإسماعيل وإسماعين.

الحجّ بمالٍ حلالٍ ورثه عن أبويه كما يقول، مع أنّ الفقهاء أفتوا بِسُقوط الحجّ عن المُدَجّنين لعدم الاستطاعة، وهذه أوّل مرّة نلقى مدجّناً أو مُدجّنين يخرجُون للحَجّ، فقد ذكر هذا المدجّن أسماء مدجّنين صحبَهُ أحدهم في القاهرة، ووجد آخرين في دمشق، ورافقه بعضهم في الطّريق إلى المدينة، وفي الطريق إلى الشام»[1].

وقد مرّ الرحالةُ المدجّن الأَندلسي ببلدان كثيرة، وأقام في بعضها، وأَطال الإقامة في بعض منها كالذي صَنعه في إقامته في القُدس.

ونذكر أُمَّهات المدن التي ذكرها في مَجْرى الرحلة، وبالتّرتيب الذي زارها بموجبه[2]، وهي غَرْناطة، ومَرّاكش، وفاس، وتلمسان، ووهران، والجزائر، وتونس، والقيروان، وطرابلس، والإسكندريّة، والقاهرة. ثم قصد إلى مكّة المكرّمة حاجّاً، سالكاً طريق الحجّ الشّامي، ثم قصد المدينة المنورة، وتوجّه إلى القدس ماراً بتبُوك، والعُلا، ومدائن صالح، وعَقَبة السّوان، ومَعان، والبَلْقاء، وأريحا، والطّور. ويبدو أنه ذهبَ قبل القُدس إلى الخليل.

---

(١) مقدمة المحقق: ص٩. ·

(٢) الصفحة: ٣٧.

الرحّالة المُدجّن في الخليل

قال:[1]: بلَغْنا من الأرض المُقدّسة وادي موسى الذي كلّم الله تعالي فيه موسى، ومدينة حِبْرُون وفيها قُبور الخليل وذُرّيته. وحِبْرُون وادٍ في جبل بينه وبين بيت المقدس مسيرة من الضَّحوة إلى الظُّهر. وكله عمارة وحَرْث، وقُرىً ونسل. وكلّ جبالِ الأرضِ المقدّسة عمارةٌ بخلاف جبال الحجاز.

وأصوّر لك أيّها القارئ حَرم الخليل بوادي حبرون، وفي أرضه المقدّسة، ثلاث مئة وستون قرية للحرث والزرع والإطعام إلى يوم القيامة. فيه موضعُ الطبلة[2] حيث يأتي الناس للطعام ويأكلون. وعلى جبال القُدس عسل الخَرُّوب يعملون منه حلوى بيضاء مثل عسل النحل طيبةً.

وبالمناسبة، فإن ابن بَطوطة ذكر هذه الحلوى في رحلته، عند الكلام على مدينة (نابلس)، قال: «هي مدينة عظيمة، كثيرة الأشجار، ومطرّدة الأنهار، من أكثر بلاد الشام زيتوناً. ومنها يُحْمَلُ الزيت إلى مصر ودمشق. وبها تُصنع حلواء الخَرُّوب، وتُجلب إلى دمشق وغيرها»[3].

---

(١) الرّحلة: أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار: ١٨١.

(٢) الطبلة (table-tabla) من اللّهجة الأندلسيةّ (ثم المغربيّة)، وقد سمّاها المؤلّف أيضاً السِّماط (جلد يوضع عليه الطعام).

(٣) رحلة ابن بطوطة ١: ٨٠ – وذكر كيفيّة صناعة هذه الحلوى.

أمّا السِّماطُ فقد ذكره الحنبليّ في كتابه: الأُنْس الجليل. وكانت لهذه المَوائد أوقافٌ يُنْفَقُ عليها منها، استمراراً لجري هذه العادة الحَسنة[1].

وتظهر عواطفُ الأندلسيّ الذي عانى في بلاده من قهر المُحتلّين وهو يصفُ المَشاهدَ المشهورة في الخليل: «.... ووجَب علينا أن نذكر مواطنَ البُقعة المباركةِ وادي حبرون المذكور في التّوراه والإنجيل والزبور والفُرقان، لم تتغيّر وجوه نعته في جميع النسخ منذ القديم، وممّا تواترت به الأخبار ما فيه من الفضل، والقُبور، والمَزارات، وصدقات الخليل، وما نفتخر به على جميع الخلق من الطّوائف. فإذا ذُكِرَ ووُصفَ ترى جميع النّصارى واليهود تتقهّر على ملكيّة أهل الإسلام بالسّيف والقهر، وببركة سيّد البشر، وصارت اليهود النصارى تحت الذمّة والجزية والذلّ والصّغار».

وسَجَّل تفصيلات سماط الخليل، وانتفاعِ النّاسِ من أبناء البلد ومن الغُرَباء بذلك، وأَنْواع ما يقدّم على تلك الموائد، وكيفية ذلك في إيضاح وإبانةٍ:

«وسِماط خليل الرّحمن مشهورٌ، وعلى هذا السّماط اثنا عشر ألف رغيف تُصْرَفُ كلّ يوم على الأغنياء والفقراء،

---

(١) انظر الحاشية (٤٨٠) على الصفحة ١٨١ من الرّحلة، ففيها نقلٌ عن المحقق عن مؤرّخ معاصرٍ أخبره عن وقفيّاتٍ باقية، لهذا الغَرض، محفوظة.

والدّاخل والخارج من أهل البلد، وغيرهم، يفرّقونها وقتَ الضُّحى الأعلى؛ والواردون يأخذون في وقْت العصر. فبعدَ صلاة العصر يُفَرّق السّماط بالعدس والزّبيب والسّلق في الخُضرة، ويأخذُ الوارد رغيفين اثنين سَاخنين، وزلافة[1] عدس مطبوخ بالقديد والسّلق، ويصبّ عليها الزيت. وبعد صلاة الصّبح أيضاً زلافة بدشيش القمح مطبوخ بالإدام[2]، وأيضاً بعد صلاة الظهر من ذلك الدشيش المذكور.

وسماط الخليل يُنْصَبُ ثلاثَ مرّات كلّ يوم... وأهل الراتب والمجاورون يأخذونَهُ وقتَ الضُّحى الأعلى: كلّ واحد على قدر راتبه، وعليه رجلٌ واحد يعرفُهم الكلّ إنْ كانُوا ألفاً يُمَيّزُهم ميزاً بيّناً: بالاسم والعَيْن، ولا يُشكلُ عليه منهم أحد، ولا يقدرُ يعاودُ مرّتين إلا ويعرفه رجلٌ محافظ على الأَشْياء كُلّها، مأمونٌ عليها، يُعطي ولا يَغْلَطُ، بارك الله فيه من رجل!

قال: وبين القدس والخليل قبرُ راحل أمّ يوسف عليها قُبّةٌ يدخلُ إليها الرّجل واقفاً؛ وبجوارها (بيت لحم) الذي ولد فيه عيسى (عليه السلام)، وهو اليوم مزارٌ للنّصارى، ويُعْطُون عليه الذّهب

---

(١) زلافة: صحن (صحفة، طاس): تكملة المعاجم العربية – دوزي– ج٥: ٣٤٨.

(٢) الإدام (وجمعه الأُدم) كل ما يؤكل من طعام مع الخبز، والدّشيش: الحبّ المجروش والدشيشة: طعامٌ يتخذ من قمح مدقوق.

للسلطان، وكذلك كنيسة القمامة يُعطى عليها، ويَدْخُل إليها النَّصارى بدينارٍ على كلّ رأس.

حركة المزارات على أيّام رحلة المُدَجّن الأندلسي:

قال المؤلف: نذكرُ ما على مدينة الخليل من المَزارات، والقبور الشّريفة، والمواضع المشهورة بالأنبياء: أوّلها على ضحوةٍ من نَهار في الجبل المذكور مزارُ موضعِ تعرّض إبراهيم إلى جبريل؛ ونزل فيه **﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعرِض عَن هَذَا﴾** [هود: ٧٦]. وبجواره قبر لُوط الرّسول ابن أخي إبراهيم، وفيها قبره، وعليه مقام عظيم. وفي أعلى الجبل جبل حَرم الخليل (عليه السلام) مَزار قبر يونس بن متّى (عليه السلام)، ويُسمّى قرية يونس، وهي على طريق القُدس، وكل جبل الخليل بوادي حبرون الغالب فيه شجر الزّيتون والعنب والزّرع والقمح، وكلّه حجارة؛ ولكن أرض البركة تعمّ أهلها بالزرع والفواكه. ومشرب أهل مدينة الخليل من ماء عينٍ يأتي من رأس الجبل يسوقونه حتى يدخل مدارج الحَرم الشريف.

والقوم بدوٌ[1] عَمَلُهم الحَرْثُ والنّسل والزّرع والحَصاد: يُكْرِمُون الضَّيف، ويُشفقون على الغريب: رجالُهم ونساؤهم، **وهم أعرابٌ أحرارٌ قدماء في الحسب النّسب من وقت فتوح الشّام.**

---

(١) يريد بالبدو أهل القرى والفلاحة على مألوف ما كان جارياً في الأندلس.

وبلاد القُدس والخليل وجبالها خضراء مثل الزمرّد الأَخضر، وفيها الماءُ والعُيون، والعمايِر والأشجار؛ وهي بلاد الثّلج والمطر: طيّبة الهواء، صحيحة الماء، كثيرة البَرْد والشّتاء، ولكنّ هواءَها لا يضرّ ولا يَفْسُد، ولا ينزل فيها حجارةٌ ولا بَرَدٌ مثل غيرها من البلاد.

وبين الخليل وبيت المقدس من ضَحْوَةٍ إلى نصف نهار وكلّها عمارة وقُرى من النّصارى الذميّين تحت المسلمين: يُطعمون الخُطّار[1] ليلَ نهار، وهذا عليهم، وعلى نصاري الشّام مشروط من الخليفة عمر بن الخطاب كما أنّهم لا يتقلّدون سيفاً، ولا يركبون سَرْجاً، ولا يلبسون عمامة بيضاء.

قال المؤلّف: لمّا وَصفْنا بيتَ المقدس المُطَهَّر مجمع الناس يوم المحشر **وَجَبَ علينا أن نَصِفَ فضله وبركاته وخَصائصه المباركة وعجائبه المشهورة.** وكفى من خصائصه أمر الله جبريل أن يأمر نَبِيّ الله داوود (عليه السلام) أن يَبْنيه، وأمَر جبريل أن يبيّن له حدّ البناء إذْ هو موضعٌ وعرٌ، وخنادق، ومسيل، وحجارة متفرقة، وكهوف عميقة، وغيران[2] مُظْلمة وشقوق واسعة بين

---

(١) الخُطّار: المارّة من النّاس، والمسافرون (حاشية من الكتاب). وتطورت الكلمة في بعض الدارج في عدد من الأقطار العربية لمعنى: الزوار.

(٢) الغيران جمع الغار: كل منخفض من الأرض، ومكان منقور في الجبل يشبه البيت.

جبلين، وتحته وادٍ يُسَمّى: وادي النار تَحْت أرض السّاهرة. وتحتها مما يلي الشرق في ما بين الطّور حيث رُفع عيسى (عليه السلام) قبر أمّه مريم الصدّيقة، وقبور ذريّة زكريا معها في وادي أرض السّاهرة، وعليها كنيسة من زمان الرّوم بيّضتْها المسلمون وغسلتها، وجعلت عليها رجالاً يَفْتحون ويُغلقون أبوابها. ومزارُها يوم الأربعاء. وقبرها وقبور ذريّة زكريّا كانت قبل البناء عليها مغارة: إذا دخلْتَ لا ترى شيئاً؛ إلا أنّه يوقد عليها يوم المزار شمعٌ على قبرها.

الضَّنُّ بأرضِ فلسطين أنْ يُبَاع منها شيء

قال المؤلف؛ رحمه الله:

وأرضُ السَّاهرة والبيت المُقَدس: فيها التّرابُ بالتّبر، حيث يُشترى القَبْرُ بأغلى ثمن. وفي كرم عنب مقدار مرجع من الأرْض يُعْطى لصاحبه في كلّ سبعة أشْبُر عن قبر: دينار في كلّ شبر، ولا يَرْضى. يَبْتَغون في ذلك الفضل بأرض السَّاهرة لتحقّقهم بها أنّها موضعُ المَحْشر، وهي شرقيّ الحَرم ملاصقة له، ومن أساس الحَرم إلى وادي النّار هبوط مقدار مرمى القوس.

وقد علّق مُحقّق هذه الرّحلة الدّكتور محمد بن شريفة حفظه الله، عند هذه الفقرة في الحاشية، وقال:[1]

---

(١) الحاشية (٤٨٩) من الصفحة: ١٨٤.

«هذه إشارةٌ غريبةٌ في هذه الرّحلة، وهي تشيرُ إلى التّهافت على شراء هذه الأرض من قديمٍ، إلى تمَسُّك أَهلها يومئذ بها، وقد خَلفَ من بعدهم خَلفٌ باعُوها وأضاعُوها».

تعقيب

من المهازل التي يقل نظيرها في التاريخ مكافأة الحلفاء لحليفهم الذي وثق بهم فآزرهم (الشريف حسين)؛ فإنه لما وضعت الحرب (الأولى) أوزارها كانت مكافأة الحلفاء تنفيذ وثيقة سايكس بيكو: اقتسموا كعكة بلاد العرب، وصارت فلسطين من نصيب بريطانيا، ورزحتْ من تلك اللحظة تحت أمرين:

أحدهما: احتلال البلاد وتطبيق الانتداب، وتهيئة البلد ليكون في قبضة اليهود تنفيذاً لوعد بلفور.

الثاني: تزايد نفوذ الجمعيات الصهيونية والهيئات اليهودية المتعددة، واستلاب ما تستطيع من أراضي فلسطين بالتواطؤ مع دولة الانتداب التي زعمت أنها تهيؤ فلسطين لتحكم نفسها(!!!).

وقد تسربت بعض الأراضي الفلسطينية بأسباب مختلفة:

- منها تآمر السلطة البريطانية لمصلحة اليهود، والضغط على الملاك بالضرائب والغرامات والحجز والمصادرة.
- ومنها ما باعه بعض الملاك من لبنان وسورية. وخالف هؤلاء العرب القيم الوطنية والأخلاقية والدينية، وصَمُّوا آذانهم عن

نداءات المخلصين من أبناء فلسطين والأقطار الأخرى بعدم البيع. وطُردَ شاغلو تلك الأراضي من الفلسطينيين، والعاملون فيها. وأكثرها كان في مناطق قريبة من الحدود مع سورية ولبنان.

- وأسهمت المصارف (البنوك) في مصادرة الأراضي وتعريضها للبيعِ عن خُطة قاصدة مدروسة.
- وباعَ قلةٌ قليلةٌ جداً من أهل الوطن أرضاً لليهودِ عن طريق السماسرة غالباً، ونالَ أكثر هؤلاء جزاءهم على يد الوطنيينَ آنذاك.
- وعلى رَغم هذا كله من التواطؤ، ووضع اليد، وإغراء غير الفلسطينيين بالبيع، والالتفاف على قلة منهم فإنّ ما وضع اليهود عليهِ أيديَهم من أرضِ فلسطين بكل تلك الوسائلِ خلالَ قرنٍ كاملٍ (ينتهي بسنة ١٩٤٨) هو سبعةٌ بالمئة من أرض فلسطين.

على أن التهاون - والتعاون!! - صار يُقال في بعض المتنفذين والمتزعمين: يتنازلون، ويُبرمون الاتفاقيات السرية - والعلنية أحياناً!!-... فكانوا كالانتداب البريطاني، وكالكيان الصهيوني، يتصرفون بما لا يملكون[1].

---

(١) انظر مثلاً: جهاد شعب فلسطين - مسعود بو يصير (مواضع مختلفة).
- على أبواب القدس - د. عدنان النحوي: ٦٠: ٦٣.

عودٌ إلى مجرى رحلة أبي عبد الله الصَّبَاح

- قال صاحب الرّحلة: «كان العَدد في المَسايف أَربعين سنةً ولكنْ: لمّا وُلِدَ سيّد الأَوّلين والآخرين محمّد (ﷺ) أعطى هذه الأمّة العددَ الأوسطَ إلى آخر الزّمان، وختم الله به الرّسالة، وفضّله بالجهاد والكرم والصّلاة والزّكاة. ولمّا كان في عِلم الله ما كان، ويكون؛ قَصَرَ المَسايف ورَدّ عَددها إلى أربعين يوماً ببركةِ محمّد (ﷺ). والله إنّ في تقصيرها معجزةً وعلامةً في التّخفيف على هذه الأمّة من مسيرة أَربعين سنة أَو أَكثر. ومن هذا تعلم أنّ الله لا يُعْجِزُهُ شيءٌ في الأرضِ ولا في السّماء...».

واستمرّ في الكلام على الوصول من العراق والشام إلى الحجاز في أربعين يوماً، وأَدار حواراً مع بعض الأَحبار والرّهبان في هذا الموضوع، وغيره، وسَرَد خبر لقائه بامرأة تتزيّى بزيّ المُسلمين، نصرانية، وطلبها منه الدّعاء لها ولأولادها. واستطرد إلى وصف، بيت المَقْدس وذكر فضله في الأرض المقدّسة وهو المسجد الأقصى[1]...

القُدْسُ والأَقْصى

قال المؤلّف: «وقُبّة الصّخرة، القِبْلَةُ المنْسُوخة، صلّى إليها جميع النبيّين، حتى نبينا محمد (ﷺ)، والمسجد الأقصى جَنّةٌ من جَنّات الأرض تحت السّماء والماء والهواء وكثرة الطعام

---

(١) الرحلة: ١٨٧.

والخضرة والعمارة الياسرة عليه من قبليّه وشرقيّه وشماله ثلاثة آلاف قرية عامرة كلها جبال حَرْث ونَسْل وأشجار وزيتون وشجر عنب وعمارة عظيمة.

ومدينة القُدس مدينةٌ مانعةٌ على مثال مدينة شاطبة[١] في كبرها، ومدينة وهران بالعُدْوة[٢]، ولكن الفرق بينهم[٣] أنّ مدينة القدس مطهّرة وأرض المحشر وبلاد البركة، وأرضها وجبالها خضراء مثل الزُّمُرّد، عليها هالة من النّور، مؤانسة للمجاور، كثيرة الفُلوس. ومنظرها بين المشرق والجنوب. وجَبل الطّور قبالة منظرها في رُفِعَ عيسى بن مريم. وقبر رابعة البدويّة، ووراء قبر العُزَيْر بن شراج[٤]، وفيه نزل ﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ...**﴾ [البقرة: ٢٥٩].

---

(١) شاطبة من مدن شرق الأندلس. وهي بلد المؤلّف الحاج المُدَجّن. وتعدّ شاطبة في المدن ذات الأهمية الاقتصادية والعلميّة، وإليها ينتمي عددٌ من العلماء الكبار.
وقعت شاطبة في يدي (خايمي الأول) سنة ٦٤٤هجرية، وبقي فيها بقية من المسلمين الذين عُدّوا في ما بعد من المدجّنين.

(٢) وهران من مدن الغرب الجزائري. ميناء مهمّ، وقد دخلت الأحداث التاريخيّة كثيراً، والعُدْوة: الشاطئ من النصر والبحر. وشاطئ المغرب العربي عُدْوة بالقياس إلى الأندلس، وقد أمضيت فيها أربع سنوات أستاذاً في جامعتها، حماها الله تعالى.

(٣) من أسلوب المؤلف.

(٤) في تفسير القرطبي على الرجل الذي نزلت فيه الآية الكريمة (وفي اسمه خلاف). وورد ذكر العزير ثمة باسم: (عزير بن شَرْخِيا). قال: وكان من علماء بني إسرائيل. تفسير القرطبي ٣: ٢٨٩.

مجاورة المدجّن في بيت المقدس

قال: جاورتُ هذا البيت المقدّس أربعة أعوام في طيبة عظيمة، وعبادة حَسنة، وصُمْتُ فيه رَمضانات بالفُتوح الياسرة والكسوة والنفقة الواسعة، في معرفة المشايخ الكرام، والسادات العظام، والفقهاء العلماء والقُراء، وكثرة الإنعام من فضل الله وبركة البيت المقدّس المطهّر المشرّف أربع سنين؛ لا نعرف متى راحت عليَّ من طيبها. وقد دخلتُ على باب حطّة سبع مرّات على طُهر ووضوء، ونَدْعُو الله تعالى أن يقبضني فيه إليه قبل رُجوعي منه، لم يبلغ الأَجل المعلوم ولا الوقت المَحتوم. نسأل الله ربّنا أن يردَّنا إلى مكة، ومدينة يثرب، وبيت المقدس، ويجعل قبورنا وإيّاكم فيها، آمين يا رب العالمين.

- واستطرد إلى ذكر فضائل بيت المقدس[1]، وقال: إنّه كان في حَرم المسجدِ اثنان وسبعون شجرة زيتون يعصرُونها وزَيْتُها يُشْفى به المرضى[2].
- وذكر أنّ أهل بيت المَقْدِس يَقْنُتُون في كلّ صلاةٍ إذا كان الخوفُ من قَحْطٍ، أو من عَدُوّ، أو من نُزول عَدْوى الطّاعون بالبَلد.
- وسَرَدَ خبَر السِّلسلةِ التي كانت للحُكم بَيْن النَّاس...

---

(١) الرحلة: ١٨٩.

(٢) الرحلة: ١٨٩.

مياه القدس والحرم القدس:

قال الرّحالةُ المُدَجّن في رحلته[١]: هذا الحَرَمُ المقدّس كان يجيئه الماء من جبال الخليل، ولكن ضعفت الملوك، وخربت السّاقية بعد أن كان الماء يجري في جميع الحَرم المقدّس. واليوم فيه أَجْبَابٌ[٢] كثيرة من ماء الثلج والمطر ما يكفي مدينة بيت المقدس خمسة أعوام.

ومدينة بيت المقدس عليها من المدائن الكبار: مدينة الرّملة ومدينة غَزّة، ومدينة **عسقلان**، ومدينة **الخليل**، ومدينة **عكّة**، ومدينة **أريحة**، ومدينة **الكرك**، ومدينة **الشّوبك**، كلّها في طاعة البيت المقدّس الشريف[٣].

القُدس في يوم عرفة؛ المَقادَسةُ والمُجَاورون[٤]

وذكر من العادات التي شاهدها فقال: «... وكلّ من لا يقدر على حَجّ مكّة يصوم رمضان في البيت المقدّس، ويُجاور حتى إلى يوم وقفة حجّ عرفة: تجتمع أهل القدس مع المُجاورين، ويقفون عند قبّة الصخرة: القِبْلة المنسوخة؛ يعملونها[٥] بين أيديهم

---

(١) الرحلة: ١٩١.

(٢) أجباب جمع جبّ: بئر (وهي في أصل اللغة البئر التي لم تُطْوَ أي لم تُبْنَ بالحجارة)

(٣) قوله: في طاعة البيت المقدّس الشريف أي تابعةً له.

(٤) الرحلة: ١٩٢.

(٥) كذا. يريد: يجعلونها.

متوّجهين إلى الكعبة ويدعون ويبتهلون بالدعاء مثل أهل عرفة. وقد قالت جماعةٌ من أهل علماء الشام، وعلماء بيت المقدس إنه حَجُّ الضعفاء والمَساكين الذين لا يستطيعون الزّاد والرّاحلة والطريق السّابلة. فإن حجّتهم بيت المقدس للضرورة وعدم الطريق إلى مكة، فهو حجّ الضعفاء، ودليلهم حديث عمر بن الخطاب (ﷺ): «شهود الجمعة أحبّ إلينا من تطوع حجّة وعمرة»[1] فإذا كان قولُ عمر (ﷺ) يسري على عموم بقاع الأرض من أنّ شهود الجمعة أحبّ إليه من حج تطوّع فَأَوْلى وأَحرى أنْ يكون حجّ بيت المقدس المطهّر حجّة مُجاور».

وقدْ وصف ناصر خسرو في كتابه (سفر نامه) بعض العادات في القدس وقد مرّ بها سنة ١٠٤٧م، وقال[2]:

«يحج السوريون وسكان البلاد المجاورة إلى القدس عندما لا تتيسر لهم وسائط الحج إلى مكة، ويُشبعون فيها رغباتهم الدينية فيضحون الضحايا ويصلّون ويتقرّبون إلى الله بجميع أنواع الصلاة والعبادة...».

وقد عقد أبو بكر الطرطوشي نزيل القُدس فصلاً في كتابه **الحوادث والبدع** عن (اجتماع الناس في سائر الآفاق يوم

---

(١) قال محقق الرحلة: ورد في فضل الجمعة أحاديث كثيرة انظر فهارس سُنن ابن ماجة.

وفي فتح الباري (٥: ٣٥٧) قال سعيد بن المسيب: شهود الجمعة أحبّ إلي من حجة نافلة.

(٢) عن تاريخ القدس عارف العارف ٦٤.

عَرفة)[1] ونقل فيه من آراء الأئمة والفقهاء في أن ذلك من البدع، ثم قال: «ولقد كنتُ ببيت المقدس فإذا كان يوم عَرفة حشر أهل السواد وكثير من أهل البلد، فيقفون في المسجد مستقبلين القبلة مرتفعةً أصواتهم بالدعاء كأنه موطن عرفة. وكنت أسمع سماعاً فاشياً منهم أنّ مَنْ وقف ببيت المقدس أربع وقفات فإنها تعدل حجة» قال متابعاً «ثم يجعلونها ذريعة إلى إسقاط فريضة الحج إلى بيت الله الحرام» فكأن الطرطوشي يريد أن يسدّ الذّرائع أيضاً.

زيادة المؤلفُ الرّحالة في التفصيل[2]:

وزادَ المؤلفُ الرّحالة في التفصيل: «جاورتُ بيت المُقَدّس أربع سنين مع مَنْ يجاور فيه من جميع الآفاق المحمديّة. ويوم النصف من رمضان تُفتح أبوابُ الحرم للمجاورين يدخلون بنسائهم وأولادهم: يصومون بقية رمضان تحت الزّيتون إلى يوم الفطر، وليلة العيد يُوقد في بيت المقدس والحرم كلّه ألف مصباح، ويوم العيد يصلّون صلاة العيد في صَحْن قُبّة الصخرة: الرجال قُدّام والنساء من ورائهم، وكذلك الجمعة: الرّجال في صدر المسجد الأقصى، والنّساء من وراء الرجال، وبينهم سُتور من كتان مصبوغ بالأخضر، والخُدّام واقفون حتى تنقضي الصلاة. وعلى كل باب من أبواب الأقصى وأبواب قبة الصّخرة

---

(١) الحوادث والبدع: ٩٧-١٠٠.

(٢) الرحلة: ١٩٢.

طِساسٌ[1] من نحاس مُبَيّضة بالقزدير كأنها من فضّة مملوءة بماء من ماء السّماء بارد؛ والزّلايف[2] على وجه الماء مرشوشة بماء الورد إذا شُربت وُجِدَت رائحتها كالمِسك الأَذْفر[3]. والصّدقات على الفقراء والمساكين لا تُحصى يوم العيد، وطول رمضان، وقد أيقنّا بأنّ صدقات يوم العيد في بيت المقدس تعدل بصدقات أهل الأرض المحمّدية كلّها».

قال المؤلّف: فإذا فرغ الإمام من خطبة العيد نفرت الناس المجاورون لأوطانهم، والعربُ تنتظر المجاورين بالجمال للكِراء: كلّ جمل إلى أرض مصر بأربعين نُقرة[4] بصرف مصر والشّام؛ وصَرْفهم في الدّينار عشرون نقرة. ورطل البيت المُقدّس خمسة أرطال من الرّطل البغدادي والمصري. واحتساب مدينة القُدس هو احتساب عمر بن الخطاب (ﷺ) أمير المؤمنين: الشعير بكذا، وكذلك مَنُّ أيّ شيء مما يوزن أو يُكال[5].

---

(1) طساس جمع طاس وطاسة: كالكأس يُشْرَب بها. (انظر تكملة المعاجم ٧: ٥٠).

(2) سبقت الكلمة مفردة: الصّحون.

(3) المسك الذكيّ الرائحة.

(4) في تكملة المعاجم (١٠: ٢٨٧): النّقرة: الفضة، ومنه جاء تعبير: درهم نقرة أو الدرهم النّقرة الذي يطلق على نوع من الدراهم الفضيّة. قال: وترد كلمة نقرة وحدها، وقد أوردها ابن بطوطة (معاصر الحاج المُدَجّن) كذلك.

(5) المَنّ: معيار قديم يُكال به أو يوزن. وما يزال شائعاً في الخليج ، وهو يعادل في الوزن ٤ كغ.

قال المؤلف[1]: وينصرف المجاورون لأوطانهم: إلى دمشق وإلى العراق وإلى الشّمال: بلاد حلب، وديار بكر، ومُلك ابن عثمان بأرض قسطنطينية الكُبرى إلى أقصى المشرق: يجاورون في هذا البيت المقدس من شهر رجب إلى شهر رمضان المعظم.

المَشاهد

وعلى هذا البيت المقدس من **قبور الأنبياء المشهورة** وغير المشهورة قبر إبراهيم وذريّته، وقبر موسى بن عمران بالكثيب الأحمر بمدينة أَريحة، وقبر النبي شموئيل، وقبر البنحاس بن هارون أخي موسى، وقبر عُزير الذي أشركت به اليهود[2].

ومن قبور الصحابة قبر [أبي عبيدة] بن الجرّاح، وقبر مُعاذ ابن جبل، وقبر جعفر بن عبد المطلب، وقبر زيد بن حارثة، وقبر زيد بن أرقم، **وقُبور أهل الكهف** في فجوةٍ بمدينة الرّقيم ببلاد البلقاء[3].

---

(١) الرّحلة: ١٩٣.

(٢) الذي أشرك اليهود باعتباره ابن الله؛ تعالى الله عما يقول الجاهلون علواً كبيراً. قال تعالى: (وقالت اليهود عزير ابن الله) (التوبة: ٣٠).

(٣) كتبت بحوث ودراسات حول مكان الكهف المذكور، والمكان المشار إليه هنا من المواضع المذكورة.

- وداخل مدينة القدس: قبر (حانَة) أُم مريم

- وداخل هذه المدينة رباطاتٌ وزوايا وأوقاف وأَحباس[1] على هذا الحرم المقدس يُطعمون المجاور له خبزتين، ورباط السّلطان خبزة كل يوم، ورباط العَجم دشيش بالصُّبح مطبوخ بالقَديد، ورباط خازن السُّلطان الظاهر ثلاثة أخباز[2]، وزاوية القَرَنْدَليّة[3] طعام يوم الخميس. والصّدقات والإطعام في غير موضعٍ[4] شيء كثير.

ومما يوصف أنّ أَرْحِيَتَهُم[5] بالجمال والخَيْل والبِغَال ﴿...بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ:١٥] إذا قعدتَ في ذلك الحَرم الشريف زال عنك هَمّ الدُّنيا: الماء الطيب، والهواء، والخُضرة؛ بلدةٌ خصيبةٌ من كل شيء، كثيرة الفواكه كثيرة ألوان الطعام.

البيت المُقَدّس لو نَصِفُ فيه[6]، وفي خصائصه ألف عام لا نبلغ خصائصه وفضائله. وكفى من فضله أنّه لم يبق من ملوك

---

(1) أَحباس: أوقاف؛ (في استعمال الأندلسيّين والمغاربة)، وهي عربية فصيحة، يقال: وقفَ داراً وحبَّس بُستاناً.. إلخ

(2) كذا.

(3) القَرَنْدلية: فرقةٌ من الصوفيّة، الواحد قَرَنْدَلي، نُسبت إلى مؤسسها الشيخ قَرَنْدَل (تكملة المعاجم ٨: ٢٥٩).

(4) في أكثر من موضع

(5) الأَرْحِية: الطّواحين. وهي تدار- لكي تطحن أو تجرش - بالدوابّ القويّة.

(6) هذا من أسلوب المؤلف، وفي عربيّته أحياناً ميل إلى شيءٍ من الدارجة.

الدُّنيا إلاّ قَاتَلَ عليه وطَمِعَ في امتلاكه. وحُرْمَتُه وعزّةُ شأنه ورفعته عند الملوك من عرب وعجم معروفة. وقِبْلَتُهُ بابٌ من أبواب السّماء الذي عرج منه نبيّنا محمد (ﷺ) ليلة المِعراج. ولم يَبْقَ نَبِيٌّ ولا رسول إلاّ صلّى فيه.

- ومدينة القُدس كافيةٌ عن غيرها من كلّ شيء: لها قيسرية[1] مبنية من زمان الرّوم لا يُرى فيها في زمن الشّتاء لا طينٌ ولا وحل.

وفي كل عيد تُزَيّن الأسواقُ والحَوانيت بحلل الحرير ثلاثة أيّام في عيد الفطر، وثمانية أيّام في عيد النّحر. وتبقى الحوانيت مفتوحةً باللّيل والنّهار[2] موقودة تُشْعَلُ إلى الصَّباح.

وبيت المقدس الشريف عند جميع أهل الأرض كلّها، وجميع أهل الملل يعزّونه ويشرّفونه. ولكن ما صحّ عزه وشرفه لأحد من الملل إلاّ للملة الحنيفيّة المحمدية ملة الإسلام وشريعة نبي الله (ﷺ).

قال المؤلّف: إنّ للخمسة ملل[3] من هذا البيت المقدس حسرةً في قلوبهم تحرقهم ناراً، وتزيدهم خساراً يوم القيامة، وأوّلها اليهودُ حَرّموا على أنفسهم لباس الأحمر وأورثهم همّاً

---

(١) قيسارية: بناية مربّعة في شكل رواق الدّير فيها حُجرات ومخازن وحوانيت للتجار
(تكملة المعاجم ٨: ٤٣٥).
(٢) يريد: مُوقَدة.
(٣) كذا من أصل الكتاب.

وحزناً وحسرةً: تُورثهم عَذاب النّار. ثم إنّ النّصارى حَلق قسّيسوهم ورهبانهم لِحَاهُم وكذلك عُلماء اليهود، وأكثر الأحبار حلقوا لحاهم ونَتفوها لمّا ملك المسلمون بيت المَقدس؛ وما زالوا يحلقون عليها لحاهم ويصبغون ثيابهم ليوم الحشر. وكيف لا؟ وذلّتهم بأداء الجزية وأداء الخراج حتّى على قمامتهم. وحجّهم أيضاً يؤدّونه بالقهر.

وأمّا اليهود فما لهم في بلاد القدس مكان ولا آثارٌ سوى قبر عُزَير بن شراح[1]، وقبر النبيّ شمويل وقبر البنحاس بن هارون؛ وهو لهم، ولكنْ لا بد أن يضَعُوا إلى أهله[2] من المُسلمين الهَدايا من الذّهب والفِضّة والدّراهم الكثار.

وجميع اليهود ينظُرون إلى هذا البيت المُقدّس نظرة الحسرات كمثل حسرة أهل النّار الذين أيسوا منْ الرّحمة ورضا الربّ، وجَنّة الخُلد، وأيقنوا بسخط الجبّار. وجميعُ طوائف أهل الكفر ينظرون إليه بحسرة نَدَامة، وتفيضُ أعينُهم دمعاً يُطفئ جميع ما يوقَدُ في أطراف الأرض من نار، أخرجهم الله منه ملعونين: ﴿.. **أَينَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبلٍ مِن النَّاسِ**﴾ [آل عمران١١٢] أخرجهم الله منه على أيدي صحابة الهُدى وقُدوة الأشدّاء، وقلوب الرحمة الذين أذاقوا اليهود والنّصارى بأيديهم

---

(١) سبق بصيغة: شراج (انظر حاشية سابقة في هذا الفصل من الكتاب).
(٢) الذين يتولّون رعايته.

العَذاب. وأورث الله بيت المقدس عبادة الصّالحين المُطيعين من هذه الأمّة ببركة النبي الشريف، سيّد العرب والعَجم.

وتقوم كلمةُ الله، ودينه المُرْتضى إن شاء الله إلى يوم الحشر والقضاء بالقُوة، والكَرم العميمُ والفَضْل الجسيم إلى آخر المنْتَهى[1].

وانتقل الرحّالة المدجّن عبدالله بن الصبّاح إلى دمشق، وما تزال القُدْسُ في خاطرِه، ومركز اهتمامه، وقال: «وننصرفُ من **وصف بيت المقدس إلى مدينة دمشق الشّام** ووصفها، وخصائصها، ومدائنها، وبركة بُقعتها».

وبين مصر وبيت المقدس خمسة عشر يوماً، وبين دمشق والقدس ستّة أيام، كلّها عمائر كثيرة.

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

---

(١) الرحلة: ١٩٦.

(٤)

رحلة مغربية معاصرة لرحلة البلوي والمُدَجّن:

(ابن بطوطة)

ابنُ بطوطة (أبو عبد الله محمد بن محمد اللّواتي الطَّنْجِيّ) هو ابنُ الثّقافة الأندلسيّة المغربيّة لمكانة طنجة المدينة التي تنظُر من بَرّ العُدوة إلى الأَندلس من قريب. وبعد تطوافه الطّويل شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً جَلَسَ يحدّثُ الناسَ بأَسفاره وما كان فيها من الحقائق والغَرائب، برغبةٍ من سُلطان بني مَرِين أَبي عنان، ونَدب لتدوين مرويّات هذا الرّحالة الجوّال: أَديباً أَندلسيّاً كان في ديوان أَبي عنان المَريني هو: محمّد بن جُزيّ الكلبي الأندلسيّ، أَحد أفراد أُسرةٍ علميّةٍ شهيرة.

وقد وَصف ابنُ بطوطة ما نَزل به، وما مرّ به من **بلدان فلسطين، ووصَف المشاهد هناك، وخصوصاً المسجد الأقصى، وقبّة الصخرة**، ومشاهد أُخرى من الآثار الإسلامية والنَّصرانيّة.

وذَكَرَ «**بعضَ فُضلاء القُدس**» كالقاضي محمد بن سالم **الغَزّي** وعماد الدين **النّابلسي** والمفتي شهاب الدين الطبري، قال: ومنهم مدرّس **المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة أبو عبد الله محمّد بن مثبت الغرناطي نزيل القدس** ...«وذكر أسماء كثيرة منها عبد الرحمن ابن مصطفى من أرز الروم وقال: صحبتُه ولبستُ منه خرقة التصوّف»[1].

ودخلَ من بُلدان فلسطين[2] إلى (**ثغر عسقلان**) وكان خراباً في وقتَ مُروره به. وذكر فيه مَزار الحُسين، (ﷺ)، ومسجد عمر (ﷺ)، ومدينة **الرَّملة**، وبها الجامع الأَبيض، **ونابلس**، وذكر فيها صناعة حَلواء الخَرُّوب، ومَرّ عن طريق السّاحل بمدينة **عكّة** التي كانت خراباً... قال: ثم سافرتُ منها إلى مدينة **طبرية**، وكانت فيما مضى مدينةً كبيرةً ضخمةً ولم يبق منها إلاّ رسومٌ تُنبئ عن ضخامتها **وعَظَمَ** شأنها، وبها الحمّامات العجيبة... وماؤها شديدُ الحرارة.. «وذكر قُبور بعض الأنبياء، والجُبّ الذي أُلقي فيه يوسف (عليه السلام)»..

ورحلة ابن بطوطة تقدّم ملاحظات في التّاريخ، وفي **جغرافية فلسطين العُمرانية والبشريّة**، وتدخُل في رسم صورةٍ معاصرةٍ للرّحلة (النصف الأول من القرن الثامن الهجري)

---

(١) رحلة ابن بطوطة: ٥٩، ويقال فيها: أرض الروم أو أرضروم.
(٢) الرحلة: ٥٩-٦٣.

ولِلأماكن المختلفة من المُدن والقرى والبلدان والأماكن الأثرية والسياحيّة، وحركة الحياة فيها من عمارةٍ وخراب، وكثافة سكّان وقلةٍ فيهم، وتقديم معلومات عن العِلم والعلماء والمدارس والمساجد، وإضافات في أحوال الحياة ومآكل النّاس ومشاربها...

وهي فوق ذلك **تذكُر بعضَ الأعلام الأَندلسيّين** الذين عرفهم أو زارهم أو سمعَ عنهم؛ **وتَرْصُد العلاقةَ المتواصلة بين الأَندلس وأبناء ذلك القُطر البعيد، وبين فلسطين عامّة والأماكن المقدسة خاصّة.**

(٥)
رِحْلَةُ القَلَصادي[١]

من أَصحاب الرّحلات إلى المَشْرِق للحجّ والزيارة ولقاء العُلَماء أبو الحسن عليّ بن محمد القرشي القَلصادي (٨١٥-٨٩١هـ). من أهل بَسْطَة بالأندلس. قام برحلته سنة ٨٤٠، وأقام في عدد من البُلدان في طريق الذّهاب وطريق العودة، مثل: تلمسان وتونس والقاهرة. وسكن غرناطة ثم رحل إلى باجة، وفيها كانت وفاته سنة ٨٩١.

ولم يذكر القَلَصاديّ دخولاً إلى بلاد الشّام في رحلته، ولكنّه لقي في مصر أَحَد أَعيان العُلماء: من **أَهل عَسْقلان** هو أَبُو العَبّاس شهاب الدين **أحمد بن علي بن حَجر العسقلاني** (٧٧٣-٨٥٢) من أئمة العلمُ والتّاريخ، أصلُه من عسقلان بفلسطين وولادته ووفاته في القاهرة. وكانت بلادُ الشّام ومصر وغيرهما في ظلّ دولة المماليك.

---

(١) رحلة القلصادي، واسمها: تمهيد الطالب ومُنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب.

- قال القلصادي في رحلته:

«ثم حضرْتُ مجلسَ الشّيخ الإمام العلامة آخر المُحدّثين في عصره سيدي أبي العباس شهاب الدّين أحمد بن حجر الشافعي (ﷺ) الإملاءَ، ثم حَضرتُ بعد ذلك الرّواية فَقُرِئ عليه بعضُ كتاب البخاري ومُسلم والنَسائي وسُنن أبي داوود والتّرمذي وناولني جميعَ ذلك، وأجازنيه... وحَضرتُ عليه بعض تآليفه».

فهذا الرحّالة لم يَفُتْهُ لقاء أَحد العلماء المنسوبين إلى بلد فلسطيني: **عسقلان**.

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

(٦)
النَّفحات الأندلُسيّة الأخيرة
في بيت المقَدس

كانت الأندلس في الرَّمق الأخير، وأهل المشرق من المماليك والعُثمانيين غافلون عن الخطر الدّاهم على الأندلس، ولم ينتبهوا؛ على كثرة الرّسائل، والرُّسل، والموفِدين، والمتطوعين، والأندلسيين الذين بيّنوا لأهل المشرق أن الخطر لا يَطالُ الأندلسيّين وحدهم؛ إنّه خطر يلتفُّ حول بلاد العرب والمُسلمين غَرْبَاً وشرقاً. وقد جَنى المشارقةُ بعد شهورٍ قليلةٍ من سُقوط غرناطة نيرانَ العُدوان الأوربّي ممثلاً ابتداءً في إسبانية والبُرتغال؛ هجوماً على مُدنٍ في المغرب الأقصى فما يليه من البُلدان، والتفاتاً إلى المشرق: الخليج، وما وراءَهُ في الهِند وشرقيّ آسية... **لقد انقلب التاريخ رأساً على عقب..**

وكانَ في **الأندلسيّين الواصلين إلى المَشرق:** أبو عبد الله محمّد بن عليّ الأَصْبَحيّ، الغَرْنَاطي الأَصل، المالقي، الوادي آشي، المعروف **بابن الأزرق** (ولد بمالقة ٨٣٢ وتوفّى في القُدس سنة ٨٩٦ هجرية).

وابنُ الأزرق من العُلماء الأجلاّء، وله تآليف ذات أهميّة. والباقي الذي اطّلعنا عليه منها يدلّ على مكانته العلميّة والتأليفية، وهو نموذجٌ للحركة العلميّة والأدبيّة التي بقيت ساريةً جاريةً على نشاطها، على رغم الأحوال الصعبةِ سياسيّاً وعسكرياً. دأبٌ عرفناه في الأندلس منذ عُهود الاستغلاب الأُولى.

وعلى الرّغم من انشغال ابن الأزرق بأحواله الشّخصية كان مُلتفتاً بقلبه ولسانه وسائر حاله إلى الأَندلس في أشدّ أيّامها صُعوبة ومعاناة.

نزل ابنُ الأزرق في المَغرب، وفي فاس عسى أن يجد من يستجيبُ لندائه ونداء الأندلس فَوجد المغربَ غارقاً في مشكلاته (بين الوَطّاسيّين والشريف العمراني) في مدّة: «كانت الحروب والفتن الداخلية تعتصر فاس اعتصاراً[1] فرحل إلى تلمسان ليطلبَ العونَ من السُّلطان أبي عمر عثمان بن محمد بن أبي فارس. ويموت السلطان ويختلف حفيدُ أَبي عمرو مع ابن عمه أبي محمد عبد المؤمن. ويَيْأَسُ ابنُ الأزرق، ويخرجُ شرقاً».

---

(١) مقدمة بدائع السلك للمحقق:١٢.

ولم ينجح ابنُ الأَزرق في بعث همّة السُّلطان قايتباي سلطان المماليك، الذي كان مشغولاً في نزاعه مع العُثمانيّين[1]..

ومضى ابنُ الأزرق فأدّى الفريضة، وقامَ بالزّيارة ورجع إلى مصر سنة ٨٩٦.

ونُتابع مع المقَّري هذه المَجْرَيات[2]:

«... ارتحل إلى المَشرِق فدخل مصر واستنْهَضَ عزائم السُّلطان قايتباي لاسترجاع الأندلس فكان كمن يطلبُ بَيْضَ الأنوق والأبْيَض العَقُوق، ثم حجّ ورجع إلى مصر، فجدّد الكلام في غَرَضه، **فدافَعُوه عن مصر بقضاءِ القُضاة في بيت المقدس،** فتولاّه بنزاهةٍ وصيانةٍ، ولم تطلْ مُدّته هنالك حتى توفّي..».

وكانت وفاةُ ابن الأزرق بعد مُدّة يسيرة من تسلّمه عمله قاضياً للقُضاة في بيت المقدس سنة ٨٩٦ قبل سُقوط غَرْناطة بشهور قليلة.

فهل مات ابنُ الأزرق من همّه وحُزْنه على وطنه؟... ينبغي أن يكون ذلك كذلك... رحمه الله تعالى.

وكان ابن الأزرق سافرَ إلى القدس من القاهرة في رمضان ٨٩٦ ووصل في شوّال وتولى القضاء بنزاهة وشرف.

---

(١) المرجع السَّابق (وانظر نفح الطيب ٢: ٦٩٩ ط: دار صادر).
(٢) نفح الطيب ٢: ٦٩٩.

وقال فيه صاحب الأنس الجليل: «وكان يتعاطى الأحكامَ الشّرعية بعفةٍ ونزاهة من غير تناول من النّاس ولكنّه مرض مَرضاً دامَ أَربعين يوماً، وتوفّي في ذي الحجّة سنة ٨٩٦. وكَثُر الأَسفُ على فقْده، ودُفن خارج باب خان الظاهر بالقدس».

وهكذا، فإن ابن الأزرق من هؤلاء العلماء والرحالة الأندلسيين الذين جاوروا في القدس، (أو بلد من بلاد فلسطين)، وهو يستحقُّ أن يقال فيه: «الأندلسي المقدسي»، **نسبة عظيمة تضاف إلى نسبةٍ شريفة.**

(٧) تذييل:
رحلة بنيامين التُطيلي[١]

ما بين عامي ٥٦١ و٥٦٩ هجرية (تقابل ١١٦٥-١١٧٣) قام الرّحالة بنيامين بن يونة التطيلي النباري[٢] الأندلسي برحلة إلى المشرق، ووصل إلى القدس، مخترقاً البلاد الأوروبيّة وبلاداً أُخرى في عُمق الدولة العباسيّة التي كانت دولة اسميّة، والحكم للدويلات (شبه المستقلّة) في الأقطار المختلفة.

---

(١) طبعت الرحلة مترجمة عن العبرية في المجمع الثقافي (أبوظبي) بعنوان: (رحلة بنيامين التطيلي: الرّحالة الرّابي بنيامين بن يونه التطيلي النباري الأندلسي.... ترجمها عن النصّ العبري وعلق على حواشيها وكتب ملاحقها عِزْرا حداد، دراسة وتقديم د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ).

- والنّسبة هي نسبة إلى تطيلة من بلاد الثغر الأعلى الأندلسي، وقد سقطت سنة ٥١١ ولا يشعر قارئ رحلة بنيامين بحرارة انتمائه إلى الأندلس، ولا يجد له أيّ خبرٍ عن مواطنيه الأندلسيّين من غير بني جلدته.

(٢) نسبة إلى دويلة نبارّة أو نبرّة كما سمّاها العرب. وهي: نافار. وكانت تُطيلة بعد الاحتلال تابعة لها. وهي على بعد ٧٨كم إلى الشمال الغربي من سرقسطة.

وقد وُصف بالرّابِّيّ، وهذه صفةً دينيّة. وكان همّه في رحلته النظر في أحوال اليهود في البلاد التي يمرّ فيها، ومن هنا كان يُحصي أعدادهم في المدن والقرى والمداشر التي يكونون فيها.

وكان دخوله القدس سنة ٥٦٤ هجرية تقديراً (تقابل ١١٦٨م) وكانت القدس آنذاك محتلّة يتحفّز نور الدين الشهيد للانقضاض عليها، هو ومن معه من القادة والوُلاة والجُند، حتّى كان تحريرُها على أيّام صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ.

ونقرأ لهذا الرحّالة الذي يؤدي مهمّة استخباريّة غامضةً في مادّة (بيت المقدس): «هي بلدة صغيرة عظيمة التحصين تحيط بها ثلاثة أسوار، فيها [يعني أيّام الاحتلال الفرنجي الصّليبي المذكور] عدد كبير من اليَعاقبة والسّريان والأرمن واليونان والكُرج والإفرنج: خليط من كلّ أمّةٍ ولسان؛ وفيها معملٌ للصّباغة يستأجره اليهود من ملك القدس سنوياً».

وكان الملكُ فيها آنذاك بنيامين المريك Al-Meric ويسمى أيضاً: Amouray الصّليبي: تولى الملك بعد وفاة أبيه بلدوين (البردويل) سنة ١١٦٢ ومات ١١٧٣م (٥٦٩ هجرية).

وذكر بنيامين من المباني مستشفى يُؤوي أربع مئة من فرسان الاستباريّة عدا المرضى، وبناية يقيمُ فيها ثلاث مئة من فرسان المعبد (يسمّيهم العرب: الداوية وهما منظمتان إرهابيّتان)... ثم قال: «ويوجد عدا هؤلاء فرسان يتوافدون من

بلاد الإفرنج وسائر ديار النّصارى من الذين ينذرون الخدمة في هذا المقام سنة أو سنتين».

ورَصد الرحالةُ المذكور مئتين من أبناء جلدته حين كان في القدس الشريف. وقال المترجم في حاشية له على الخبر (الصفحة ٢٤٨): «حين فتح [يريد احتلّ واغتصب] الصّليبيون مدينة القُدس ذبحوا يهودها إلاّ النّزر اليسير منهم. وبعد عشر سنوات من زيارة بنيامين (الرحّالة المذكور) هذه المدينة لم يجد فيها الرحالة الآخر (فتاحية) غير يهودي واحد» .

وقال الرحالة في موضعٍ لاحق من كلامه على القُدس: إنّ الفرنجة الصّليبيّين يهدمون قبور اليهود ويستعملون حجارتها لبناء بيوتهم![1].

وفي مادة (بيت لحم) رصد أَحد عشر يهودياً يحترفون الصّباغة. وعلّق المحقق على اشتغالهم بهذه الصّنعة: «كان للصباغة أهمية كبرى في القُرون الوسطى، مركزها حوض البحر المتوسّط، وهذا ما يفسّر كثرة الصبّاغين من اليهود. وكانت أوربة تستورد من الشرق ضرباً من القماش (النسيج) المصبوغ يُعرف بالسّقلاطون[2].

---

(١) الصفحة: ٢٥٣.

(٢) الصفحة:٢٥٦. والسقلاطون: نوع من الثياب. والكلمة دخيلة.

قلت: ويبدو أنّ إبقاء الفرنجة على هذا العدد القليل من اليهود في بعض المُدن والبلدات كان لاستخدامهم في صنعة الصباغة هذه. وفي مادة (مدينة الخليل) ذكر تحويل الصليبيين كنيساً كان لهم أيام الحكم الإسلاميّ إلى بيعة جسيمة تدعى كنيسة القدّيس إبراهيم[1].

.... وهكذا...

ومن خلال هذه الرحلة، وتسجيل الرّحالة بنيامين أحوال أبناء جلدته تحت حكم الفرنجة يَتبيّن أسباب لجوء اليهود إلى بلاد العرب والمسلمين بعد طردهم من الأندلس، ويفسّر دخولهم عواصم العرب المختلفة، واستانبول بعد صيرورتها عاصمة للدولة العثمانيّة، وغيرها من المدن والبلدات.

- فهل كان رَدُّ الجميل للعرب والمسلمين لقاء إيوائهم لليهود المطاردين من أوربة وحسن معاملتهم رَدّاً مناسباً على مدى الزمان؟

إن ما يجري في هذا الوقت (العشر الأوّل من الألفيّة الثالثة من التّاريخ الميلادي) نموذج على مكافأة اليهود للعَرب والمُسلمين على طريقتهم الخاصّة بهم. يَجْزُون سيئةً بكلّ حسنة قدَّمناها لهم..

- والتّاريخ عِظاتٌ وعِبَرٌ!.. القضيّةُ هي أنْ نعتبر!!....

---

(١) الصفحة: ٢٥٧.

الفصل الرابع

الشّعر الأَنْدَلُسِيّ في بَيْتِ المَقْدِس

قال ابن جبير يحرّض على الجهاد وطردِ الفرنجةِ وتحرير البلاد وإنقاذ العباد:

بني الإسلام جدّوا في الجهاد ... بِسُمْرِ الخَطّ والبيضِ الحِدادِ

وبيعوها فربكم اشتراها ... نفوساً تربَحُوها في المَعادِ

عدوّكم بعقركمُ مقيمٌ ... ليستولي على مُلكِ البلاد

(١) شُعَراء الأَندلس وصَلاح الدين

(ابنُ جُبير الكِناني والجِلْيَاني الغسّاني)

(٢) القُدسيّاتُ والمُبَشِّراتُ الأندلسيّة

(١)

شعراء الأندلس وصلاح الدّين الأيوبي
(ابن جبير والجلياني)

ابن جبير الكناني الأندلسي

لا نعرف من خلال أخبار ابن جبير التي رَواها عن نفسه، ولا من كُتب التواريخ أن ابن جبير لقي صلاح الدين، ولكنّه كان يعرفُ عنه الكثير، وكان معجباً به من وراء ما كان يَسْمَعُ من ثناء الناس عليه، ومن خلال أعماله، وجهادِه، والتفاته إلى إنقاذ الأُمّة من العدوّ الفرنجيّ المتكالب على السّلب، المُفسد في الأَرْض، العابث بمصائر الناس أصحاب البلاد. وكانت أشعار ابن جبير تصل إلى صلاح الدين ويستجيبُ لما فيها.

ونقرأ – في هذا المجال – في الرّحلة[١]، وهو يَذكرُ عادةَ التّهنئة بالهلال الجديد (عند أهلِ مكّة).... فَهُم:

---

(١) الرحلة: ١١؛ وسبق الكلامُ على ابن جُبير في فصل: الرّحلات المدوّنة.

«يَتصافحون، ويَتَغافَرون[1]، ويدعو بعضُهم لبعضٍ كفعلهم في الأعياد. وكان الأمير(مكثر)[2] يبكّر إلى الحرم في أوّل كل شهر بحاشيته وقوّاده وحَرّابَتِه[3] لاستقبال التهنئة بالشهر الجديد، باعتباره السلطان الحاضر في مكة. على أن السيادة العليا الاسمية كانت للخلافة العباسية، فيدعو خطيب الجمعة للخليفة ثم لأمير مكة ثم للسّلطان صلاح الدين، ولوليّ عهده: أَخيه العادل أبي بكر».

ولاحظ ابنُ جبيْر في صَلوات الجمعة بمكّة المكرمة أنّه **حين يأتي الخطيبُ على ذِكر صلاح الدّين تخفق الألسنةُ بالتّأمين[4] في كلّ مكان اعترافاً بفضله على العالم الإسلاميّ** عامّة، وقال [5]:

---

(١) يدعو بعضهم لبعض بالمغفرة.

(٢) مُكثر بن عيسى (توفّي بعد سنة ٥٩٧) آخر الأشراف الحسنيّين أمراء مكة من بني فليته أو الهَواشم. كان الخطيب يدعو في خطبته للخليفة العبّاسي ثم يدعُو لمُكثر، ثم للسلطان صلاح الدين الأيّوبي. قال القلقشندي في صفته: كان جليل القدر وهو الذي بنى القلعة على جُبَيل أبي قبيس. ولكن سيرة مكثر لم تكن دائماً مرضيّة فانتهت دولتهم على يده (وهناك تفصيل في ترجمته في الأعلام ٧: ٢٨٤). وكان لما كتبه ونظمه ابن جبير أثر في تنوير أيام دولته.

(٣) الحرس.

(٤) بقول: آمين.

(٥) الرحلة: ١٢.

«لا عجبَ في أن يُفرد أهل السّنة هذا السلطان بتأميناتهم الهالعة فقد هدم الدولة العبيديّة الفاطميّة ودعوتها بمصر من غير حرب، بعد أن عجزت الدولة العباسية عن ذلك بمختلف الوسائل، وهذا فضلاً عمّا بلَغه من التوفيق في الحُروب ضدّ الصّليبيّين حتى آخر عهده».

وقد رفع ابن جبير قصيدةً إلى صلاح الدّين الأيُّوبي، ولم يذكر ابنُ عبد الملك المراكشي راوي القصيدة كيف أَوصلها إليه، ولكنّها - لا شكّ - قد وصلت، فقد لقي من العلماء والكبراء والواصلين إلى صلاح الدين ما يكفل له ذلك، وزيادة.

وللقصيدة خَبر؛ فقد نزل بالإسكندرية في «ركب عظيم من المَغاربة»[1] وواجهتهم من صاحب المَكْس (الجمرك) معاملةٌ سيّئة، وأخذ منهم ما سمّاه (زكاة)؛ واشتدَّ في تفتيش الرّجال والنساء دون رعاية لحرمتهنّ، وأسرف في الأخْذ، وحلّفهم على ما لم يعثر رجاله عليه من المال إنْ كانوا أغفلوا شيئاً منه. فرفَع ابنُ جُبير قصيدة:

- وصف فيها ما جَرى عليهم من صاحب المَكْس؛
- وفصّل في إيذائه النّساء؛
- وذكر إسرافه في استيفاء المكس، وما سَمّاه صاحبُ المكس زكاةً؛

---

(١) وكان يقال للأندلسيّين أيضاً مغاربة كما أشرت في هذا الكتاب.

- ونصح (صلاحَ الدّين) في تلك القضيّة؛
- وأثنى عليه بما سَمِعَهُ عنه، وعن مآثره وحربهِ للفِرِنْجة؛

قال ابن جبير[1]

[من المتقارب]

أَطلّت علـى أُفْقِـكَ الزّاهـر ... سـعودٌ مـن الفلـك الـدّائرِ

فأبـشرْ فـإنَّ رِقـابَ العِـدا ... تُمَـدُّ إلـى سـيفك البـاترِ

وعمّـا قليـلٍ يَحُـلُّ الـرّدى ... بِكُنْـدِهم النّاكـثِ الغـادرِ[2]

وخِصْبُ الورَى يوم تَسْقي الثرى ... سحائبَ مـن دَمِهـا الهـادر

فكم لـكَ مـن فَتكـةٍ فـيهمُ ... حكَتْ فتكةَ الأسَـدِ الخَـادِرِ[3]

كـسرتَ صـليبهمُ عُنْـوةً ... فَللّـه دَرُّكَ مـن كاسـرِ!

وغيّـرْتَ آثـارَهُمْ كُلَّهـا ... فليسَ لها الدّهْرَ من جـابرِ[4]

وأمْضَيْتَ جِدَّكَ فـي غَـزْوِهم ... فَتَعْـساً لِجَـدِّهمِ العـاثرِ[5]

---

(١) الرحلة: ٥٩٨.

(٢) الكُنْد (الكُونت) رتبة. وهذه الإشارات تدخل في المُبَشّرات، وقد خصصت لها فقرة تالية.

(٣) خدَر: استتَر، فالأسد الخادر الذي يفاجئ عدوّه، ويقضي عليه.

(٤) الدّهر منصوبة على الظرفية الزمانية. يريد: طوال الدهر.

(٥) الجَد: بفتح الجيم: الحظ. وعثر: زلّ وكبا. وعثر جدّ فلان: تعس.

فـــأدْبَر مُلْكُهُـــمُ بالـــشّآمِ ... وولّـــى كأَمْـــسِهِمِ الـــدَّابرِ[1]

جنودُك بالرّعْـب منـصورةٌ ... فناجزْ متى شئتَ أو صابرِ[2]

فكلّهـــم غَـــرِقٌ هالـــكٌ ... بتيّـــارِ عـــسكركَ الزّاخـــرِ

ثأرت لدين الهُدى في العِـدَا ... فـــآثركَ اللهُ مـــن ثـــائرِ

وقُمْتَ بِنَـصْرِ إلـــهِ الـــورَى ... فـــسَمّاك بالمَلِـــك النّاصـــرِ[3]

وجاهَـدْتَ مُجْتَهِـداً صـابراً ... فللّـــهِ دَرُّكَ مـــن صـــابرِ

تبيتُ الملوكُ علـى فُرْشِـها ... وتَرْفُل في الزَّرَدِ الـسّابري[4]

وتؤثِرُ جاهدَ عَـيْشِ الجهـادِ ... على طيبِ عَيْشِهِمِ النّاضِـرِ[5]

وتُسهر جَفْنَكَ في حَـقِّ مَـنْ ... سَيُرْضيكَ في جَفْنِكَ الـسّاهرِ

فَتَحْتَ المُقَدَّسَ مـن أرْضِـهِ ... فعادتْ إلى وَصْفِها الطّاهرِ[1]

---

(١) مضى كالأمس الذي انقضى.

(٢) إشارة إلى الأثر المشهور: «نُصرت بالرُّعب....».

(٣) لقب صلاح الدين: الناصر لدين الله.

(٤) الزّرد: الدرع، السّابري: درع دقيقة النسج في إحكام (منسوبة إلى الملك سابور) وأصل معنى رَفَل: جرّ ذيل ثوبه وتبختّر في سَيْره.

(٥) يقارن بين صلاح الدين في جهاده ومجاهدته وبين أمراء يؤثرون الدَّعة.

al-maktabeh
المكتبة
المهتدين

وجِئتَ إلى قُدْسِهِ المُرْتَضى ... فخلّصْتَهُ مِن يَدِ الكافرِ

وأعليْت فيه منارَ الهدى ... وأحْيَيْتَ من رَسْمِهِ الدّاثِرِ

لَكُمْ ذَخَرَ اللهُ هذي الفتوحَ ... من الزمن الأوّلِ الغابر

وخَصّكَ من بعد ما زُرْتَهُ ... بها لاصطناعِكَ في الآخرِ

مَحَبَّتُكُمْ أُلْقِيتْ في النُّفوس ... بذكرٍ لكم في الوَرى طائرِ[٢]

فكم لهمُ عند ذِكر المُلوك ... بمثلِكَ من مثلِ سائرِ

---

(١) نص القصيدة في (شعر ابن جبير) صنعة د. إحسان عباس، وأصله في الذيل والتكملة ٥: ٥٩٨-٦٠١ وفيه القصيدة عدا ٢٥و٢٦. ونفح الطيب ٢: ٣٨٣.

وفي رحلة العبدري من ١- ٦١.

- ومجرى كلام ابنُ عبد الملك يدل- دون ارتياب- على أن القصيدة قيلت في رحلته الأُولى التي اصطدم فيها الحُجّاج المغاربة والأندلسيّون بالمكس في مصر. فإذا سَلِم ذلك فإنّ إشارات الشاعر إلى فتح القدس تكون على مذهبٍ شاعَ في المشرق من شعرائهم وخُطبائهم (مشارقةً ومغاربةً) هو: التبشير بالفتح قبل وُقوعه: ثقةً بنصر الله، وحماسةً لصلاح الدين وجُنْده.

على أن في الأبيات التالية ما يوحي بأنّ القصيدة أُنشئت بعد فتح القُدس، وبعد مُعَاينته ما جرى أمامه في الحجاز في أثناء رحلته الأُولى، مثل رفع المغارم عن أهل الحجاز، والدعاء لصلاح الدين بعد أعماله المختلفة ذات الأهمية، وخُصوصاً الفُتوح في الأراضي الفلسطينية. والمسألة تحتاج إلى تحرير.

(٢) في البيت اقتباس قرآني.

رفعتَ مَغارِمَ أَهْـلِ الحِجـازِ ... بإنْعامكَ الـشّامِلِ الهـامرِ[1]

فكمْ لكَ بالشَّرقِ مـن حامـدٍ ... وكم لك بالغَرْبِ مـن شـاكرِ

وكم بالدُّعاءِ لَكـمْ كـلَّ عـامٍ ... بمكّـةَ مـن مُعْلِـنٍ جَـاهرِ

وكم بقيتْ حسبةٌ في الظَّلُـومِ ... وتلـك الـذّخيرةُ للـذاخرِ[2]

يُعنّـفُ حُجّـاج بيـتِ الإلـهِ ... ويَسْطو بهم سَـطْوَةَ الجـائرِ

ويَكْـشِفُ عمّـا بأَيـديهمُ ... وناهيكَ من مَوْقَـفٍ صـاغرِ

وقد وَقَفُوا بعـدما كُوشِـفُوا ... كـأنَّهُمُ فـي يَـدِ الآسِـرِ

ويُلْـزِمُهُم حَلِفـاً بـاطلاً ... وعُقْبى اليَمينِ على الفاجرِ[3]

وإنْ عَرضتْ بيـنهم حُرْمَـةٌ ... فليسَ لَها عنـهُ مـن سـائرِ

أَليسَ يخـافُ غـداً عَرْضَـهُ ... على المَلِكِ القـادرِ القـاهرِ؟

وليسَ على حُرَمِ المـسلمين ... بتلك المشاهدِ مـن غـائرِ[4]

ألا ناصـحٌ مُبْلِـغٌ نُـصْحَهُ ... إلى الملكِ النّاصـرِ الظـافرِ؟

ظلومٌ تَـضَمّنَ مـالَ الزّكـاةِ ... لقد تَعستْ صـفقةُ الخاسـرِ

---

(١) من هَمَرَ الماءُ والدمعُ والمطرُ: انصبّ.

(٢) صبر هو، وصبر النّاسُ على ذلك الظَّلوم (أو أولئك الظّالمين) محتسبين صبرهم عليه (عليهم) عند الله تعالى.

(٣) العُقْبى، هنا، جزاءُ الأمر.

(٤) من الغَيْرة المحمودة، المطلوبة.

يُسرُّ الخيانةَ في باطنٍ ... ويُبدي النّصيحةَ في ظاهرِ

فَأَوْقِعْ به حادثاً إنّهُ ... يُقَبّحُ أُحْدوثةَ الذاكرِ

فما للمناكرِ من زاجرٍ ... سِواكَ، وبالعُرْفِ من آمرِ[1]

وحاشاكَ إنْ لم تُزِلْ رَسْمَها ... فمالكَ في النّاس من عاذرِ

ورَفْعُكَ أَمْثَالَها مُوسِعٌ ... رداءَ فَخارك للنّاشرِ[2]

وآثارُك الغُرُّ تبقى بها ... وتلكَ المآثِرُ للآثِرِ[3]

....

نَذَرْتُ النَّصيحةَ في حَقّكمْ ... وحقُّ الوفاءِ عَلى النَّاذِرِ

وحُبُّكَ أنطقني بالقَريضِ ... ومَا أبتغي صِلَةَ الشّاعرِ[4]

ولا كان في ما مضى مَكْسَبي ... وبئسَ البضاعةُ للتّاجرِ

إذا الشّعْرُ صارَ شِعَارَ الفتى ... فَنَاهيكَ من لَقَبٍ شاهرِ[5]

---

(١) المناكر جمع المنكر، جاء بها الشاعر على التكسير، وفي كُتب اللّغة: مُنكرات، والعُرْفُ هو المعروف.

(٢) رفعك المظالم عن النّاس يرفعُ ذكرك بالخير في الدّنيا كلها.

(٣) الآثر: الآتي بعدك، يرصد آثارك (الأعمال الحسنة...).

(٤) القريض: الشعر. يقول: لست متكسباً، وأرسل إليك يا صلاح الدّين هذا الشعر محبّة، ولا أُريد على الشعر ولا المحبّة مكافأة.

(٥) في الشّعر شهرةٌ للشّاعر. وهو إن نظم الشعر على قلة فلا يرغبُ في نيل لقب الشاعر!

وإن كانَ نظْمـي لـه نـادراً فقد قيل: «لا حُكْمَ للنّـادرِ»!

ولكنَّهـا خَطَـراتُ الهـوى تَعِـنُّ فَتَغْلِـبُ للخَـاطِرِ[1]

وأمّا وقـد زارَ تلـكَ العُـلا فقد فازَ بالـشَّرَفِ البـاهرِ[2]

وإن كـان منـكَ قَبُـولٌ لـه فتلـك الكَرامَـةُ للزّائـرِ

ويكفيهِ سَـمْعُكَ مـن سـامعٍ ويكفيهِ لَحْظُـكَ مـن نـاظرِ

ويُزْهى على الـرَّوضِ غـبُّ بما حَازَ من ذكرِكَ العَـاطرِ[3]

ولم يغب عن ابن جبير، وهو طُلَعةٌ، يُحْسن الاستفسار عن الأمور، ومعرفة حقائق الأخبار والرجال، أنّ صلاح الدين الأيّوبي كان يعرف للأدب حقّه، ويتذوق الشعر، ويَحْفظُ منه الكثير. وفي أخباره أنه اطّلع على جانبٍ حسنٍ من الحديث والفقه والأدب ولا سيّما أنساب العَرب ووقائعهم، وحَفِظَ ديوان الحماسة..

---

(١) يقول - وهو من باب التّواضع، وأنّه لا ينفق وقته في الشعر- لست بشاعر؛ ولكنّها خَطراتٌ تخطر فأنظمها، ولذلك أوقاتٌ [محدودة]، ومناسبات...

(٢) نظمي الشعر في صلاح الدّين يضيفُ إلى شعري مزيّةً عظيمة، وتلقيك شعري بالقبول شَرَفٌ باهرٌ لي.

(٣) زَهى (يَزْهو): تاه، وتعاظمَ، وافتخر والحَيا: المطر. غبّ الحيا: بعد نزوله يقول إن شعره أحلى في مجال الشعر من الروضة الغناء الممطورة.

ولهذا، ومن وراء هذا الفهم من ابن جُبَير، استرسل الشّاعرُ في نظم الشعر المناسب للحوادثِ والمُشَاهدات التي عايَنها أو عرَفها أو مَرّ بها إسهاماً منه ومشاركة في أمور العباد والبلاد.

وعلّل ابن جُبير شعره الموجّه إلى صلاح الدين برغبته الصادقة في النَّصيحة، و«أَوْغَل» في نقد بعض ما أنكره اعتماداً على حُبّ الشاعر لصلاح الدّين، وسمعته الطيبة عند الخاصة والعامة، وأداءً لواجب النصيحة المكلف به كل مسلم قادر على ذلك.

ومن هذا المنظور نظم ابن جبير قصائد، ورفعها إلى السّلطان كتلك التي نبّه الشاعرُ فيها على ما ظهرَ في المدينة المنوّرة (طَيْبة) حين زارَها أيّام صلاح الدّين، من البِدَعِ الّتي لا يجوز السُّكوت عنها، وأوّلها[1]:

[من الوافر]

صلاحَ الدّينِ أنتَ لـــه نظـــامُ فَما يُخْشَى لِعُرْوَتِـــه انْفِـــصَامُ

---

(١) القصيدة في الذيل والتكملة ٢/٥: ٦١٧ – ٦٢٠، وهي في شعر ابن جبير عن الذّيل ص ٥٨ وما بعدها. وللزركلي في الأعلام ٨: ٢٢٢ وصف حسن في صلاح الدين من حيث اهتمامه بالأدب ومعرفته له وعنايته به. والزركلي شاعر وأديب بارع.

فـأَظْهِرْ سُـنّة الله احتـساباً فقد ظهرتْ بها البِدَعُ العظـامُ
وفي دينِ الهُدى حَدثتْ أُمورٌ بها للـدّينِ حُـزْنٌ واغْتِمَـامُ

ويقول فيها:

وكيفَ تطيبُ في الدّنيا حيـاةٌ وطَيْبَةُ لا يطيبُ بهـا مقـامُ؟
بِتُربتِهـا رسـولُ اللهِ ثـاوٍ وليسَ لأَهلها منهُ احتشامُ(١)

والقصيدة طويلة تعالج ما تخلّف من عادات العُبَيْديّين الذين أسقط صلاح الدين دولتهم، وأَذْهب عاداتهم وتقاليدهم، ومساوئ كثيرة كانت فاشيةً عندهم.

- ومن شعر ابن جُبَير في المَشْرق قصيدةٌ(٢) بناها على الإيجاز والاختصار يَحُثّ فيها المُسلمين على الجهاد: **ويذكر اسم القُدس بعد تخليص صلاح الدين إياها من يد الفرنجة الصليبيّين،** فقد كان يرى الأحداث وجغرافية المكان المُنذرة بالخطر الداهم؛ لأن أولئك الأَعداء المُحتلّين يمكرون للعودة - لو استطاعوا - إلى بيت المقدس مرةً أخرى؛ قال:

[من الوافر]

بَني الإسلامِ جِدُّوا في الجهادِ بِسُمْرِ الخَطّ والبِيضِ الحِدَادِ(٣)

---

(١) يريد أولئك الطارئين النازلين الذين انساقوا مع العُبَيْديّين وأشباههم.
(٢) مجموع شعره (عباس): ٤٠ - ٤١.
(٣) من الأسلحة التقليدية القديمة فالسمر: الرماح، والبيض: السيوف.

وبِيعُوهـــا فـــربّكم اشـــتراها نفوساً تربحوها في المعادِ[1]

عـــدوُّكم بعقـــركمُ مقـــيمٌ ليستولي على ملكِ الـــبلادِ[2]

وبيت القدس يَفْرَقُ كل يـــومٍ حَذاراً أن يعود إلى الأعادي[3]

ودينِ الله يَلْحَظُـــه: «أغِثْنـــا» بجفنٍ قـــد تكحّـــل بالـــسُّهاد

فَسُلّوا المَـــشرفيّةَ واســـتقلُّوا بها فوق المُسَوَّمةِ الجيـــادِ[4]

فليس يفوز بالحُسْنى سوى مَنْ تَـــدَرّعَ بـــالجَلادَةِ للجِـــلادِ![5]

وابنُ جُبَير الذي جاور مدة في القُدس، وعرفَ البلاد في رحلاته الثلاث معرفةً واسعةً كان ينظرُ بعين البصيرة وهو يحذّر من انتكاسةٍ تطرأ على القُدس بعد تحريرها؛ ويقدّرُ الخطرَ الكبير على فلسطين والشّام، على رغم انتصاراتِ صلاح الدين وسائر المجاهدين، ولهذا قال:

وبَيْتُ القُدْسِ يَفْرَقُ كُـلَّ يـــومٍ حِذاراً أَن يعودَ إلى الأعـــادي![6]

---

(١) هنا إشارة قرآنية، يقول: بيعوا أنفسكم واشتروا بها الجَنّة.

(٢) العقر من الدار: وسطها.

(٣) الفرق: الخوف.

(٤) المشرفية: السيوف (منسوبة إلى أحد مكان صنعها).

(٥) الجلادة: الصبر، والجِلاد - بكسر الجيم - القتال.

(٦) يَفْرَقُ: يخاف ويخشى.

وقد علّق د. إحسان عبّاس على مثل هذا المَلْمَحِ الذي أُشيرَ إليه، في مقدمة ديوان ابن جبير، بعد ذكر وفاة الشاعر الرّحالة سنة ٦١٤ هجرية[١]:

«وحين تُوفّي الشاعرُ ذو المشاعر الرقيقة في العام الذي تُوفّي فيه كانت الأقدارُ تحجُبُ عن عينيه ما يَدْخَرُه المستقبلُ من نكساتٍ بعد صلاح الدين؛ وكانت القُدس التي استردَّها صلاح الدين أشقى المُدن بمن خَلَفه من الحكّام الضعفاء المتنابذين في ما بينهم؛ ففي سنة ٦١٦ رأى المعظّم عيسى أنه لا بدّ من هَدْمها لكي لا يستولي الغزاة الأوربيون عليها، وبعد سنوات رأى الكامل محمد أن يقدّمها لصديقه الإمبراطور فريدريك!! كلّ هذا والشعبُ المسلم يتنزّى حسرةً على ما انتهت إليه القُدس.

إنّ ضعف أمراء المسلمين في القديم والحديث أشْقى القدسَ وأهلها بل أشقى فلسطينَ كلّها حين أصبحت في بعض فترات التّاريخ عُرْضَةً للمساومة. لقد كان ابن جُبير سعيداً بأن لقي منيّته دون أن يعيشَ ليستطعم مرارة الكوارث التي لم تجد حين وقعتْ «صلاحَ

---

(١) مقدمة د. إحسان عبّاس لمجموع شعر ابن جبير: ١٩ـ٢٠.

دينٍ آخر. على كل حال لو عاش ابن جُبير وشهد بعضاً من تخاذل أمراء المُسلمين لمات قَهراً [1]»...

---

(١) وأضاف د. عباس وهو فلسطيني من قرية إجْزم من قضاء حيفا، (وقد هَدمها العدوّ جميعاً): «أقول قولي هذا واستغفر الله. معذرة على هذا الاستطراد؛ فإنّ قيمة البحث العلمي لا تحتملُ الاستطراد في نظري؛ ولكنّي أعيش أواخرَ العُمر تحت وطأة مفاوضاتٍ استسلاميّة مقابلَ التّنازل عن وطن، فليس عجيباً أن أرى في موتِ ابن جُبَير نجاةً من مرحلة استسلامية حدثت بعد وفاته!!».

- وقوله: «والشعب المسلم يتنزّى..» أي يتوثّبُ.

(٢)
المُبَشِّراتُ والقُدْسِيّات

كان الغَزوُ الفِرنجيُّ الصّليبيّ قد حَفَزَ الأُمّة غرباً وشرقاً على الصّحوةِ من إغفاء، والانتباه من نَوم، واستنهضَها لمواجهة العدوّ الذي دخل البلاد، واقتحم الحُصون، وحَطَّ رحالَهُ حيثُ استطاعَ من بلاد الشّام: في هُجوم أَنْسى ما كان يصنَعُه البرابرةَ. وكانت المصيبةُ في القُدس عظيمةً بالقتل والحَرْق والسَّبي والتشريد، والخوضِ في دماء المُسلمين بأرجل الخيل في المسجد الأقصى والصَّخرة، وسائر المَساجد والمعاهد، إلى الهدم والتخريب في المباني المباركة، والتّنجيس لها.

وكان للخُطباء والشّعراء والعلماء أَثر في بثّ الحماسة والدّعوة إلى مواجهة العدوّ: بتجنيدِ الجند، وإعداد العَتاد، ومواجهة الهَمَج الذين جاؤوا للقتل والإبادة والاستيطان، ولا وطن لهم أَصْلاً في هذه البلاد. ووجد النَّاسُ في حركةِ آل زَنْكي ومن آزرهم بدايةً لقتال ذلك العدوّ الشّرس: من عماد الدين، وابنه

نور الدّين، ومن بعدهما صلاح الدين بن أيّوب، وسائر المجاهدين.

وكانت أيّامُ صلاح الدِّين أيّام أمَلٍ تطلَّعتْ إليها قُلوبُ الناس، وهَتفتْ لها ألسنتُهم، بين إنقاذه البلاد من دولة ضعيفة هزيلة لم تثبت أمام الصّليبيين، هي دولةُ العُبَيديّين وإسقاطها، وبين وضعه الخُطط وتجييشه الجُيوشَ لاستردادِ ما وَقع في أيدي الفرنجة، وهو كثيرٌ على امتداد بلاد الشام وصولاً إلى أعاليها شمالاً؛ ليبدأ العدّ العكسي للوجود الصليبي في بلاد العرب والمسلمين وإنقاذ الصخرة والأقصى وسائر البلاد المنكوبة المغصُوبة، وهي أراضٍ مباركة.

وهكذا انطلقت الأَصوات:

- بالدَّعوة العامّة إلى الجهاد، وأخذ زمام المبادرة لإيقاف توسُّع رُقعةِ العدوّ أولاً، والقضاءِ عليه حيث وُجدَ في الدّويلات والمُستعمرات التي تَناثرت في أرجاء بلاد الشَّام من الفرنجة؛
- والدعوة إلى إنقاذ القُدس باعتبار ذلك العُنوانَ الكبير الذي يتوّج حركة الجهاد المباركة. ومن هنا ظهرت **(القدسيّات)** من النّصوص النثرية والشعرية.
- **والمُبَشّرات**، وهي قصائد وخطبٌ وأقوال صَدرت عن الأدباء والشعراء: تنظر إلى الغَدِ بالأمل المرجوّ، والنّظرة الثاقبة

أيضاً، وتبشّر بالتغلب على العدوّ، والقضاءِ عليه، أو إلزامه بالرّحيل مذموماً مدحوراً.

وكانت المبادرة بالبشارة بفتح القدس، وسائر بلاد الشام وتحريرها من الفرنجة قد بدأت مع نور الدين زنكي (الشّهيد) أيّام ولايته فقد «عُرفَ بنور الدين فراسَته بفتح بيت المقدس قريباً، فأمر في حلب باتّخاذ منبر القُدس[1]، وكان أثراً فنياً تعب النّجارون والصناع والمهندسون فيه سنين؛ وأبدعوا في تركيبه الإحكامَ والتزيين. وبقي ذلك المنبر بجامع حلب منصوباً، منيفاً في صوانِ الحفظ مقروباً، حتى أمر السلطان [صلاح الدين] في هذا الوقت بالوفاء بالنذر النوري، ونقل المنبر إلى وضعه القُدسي. فعُرِف بذلك كرامات نور الدين التي أشرق سَناها بعده بسنين، كان من المحَسنين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** *﴾ (البقرة: ١٩٥).

وكان صلاح الدّين قد أمر بعد فتح القدس بعمل منبر للمسجد الأقصى فأُخْبرَ بمنبر نور الدين الذي أعدّه لهذه المناسبة قبل عشرين عاماً وأنه منبر لم يُعمل في الإسلام مثله، فأمر بإحضاره ووضعه في مكان المنبر من المسجد الأقصى، وكان هذا المنبرُ يُعَدّ من أنفس وأثمن قطع الحفر على الخشب في العالم كافة إلى أن أحرقة الصهاينة[2].

---

(١) سنا البرق الشامي: ٤٠١.

(٢) قدسنا – محمود العابدي: ٧٩.

وفي صباح ٢١ آب ١٩٦٩ أقدم مدسوس يهودي على إحراق المسجد الأقصى، وقد اشتعلت النار في الجناح الجنوبي الشرقي، وشب حريق ثانٍ في المنبر الأثري الذي لا مثيل له[١] فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

.... **وكان صوت ابن جُبَير الأندلسيّ** صوتاً صَدَّاحاً في الدّعوة إلى الجهاد، والتماسك أمام العدوّ، وموالاة الضَّربات لكي لا يَصحو العدوُّ من آثارها، ولكي يكونَ النصرُ حاسماً، وطردُ العدوّ كاملاً.

وجاء أندلسيٌّ آخرُ غادَر الأندلسَ إلى المَشْرق، وعاش في ظلّ دَولة الزَنكيين والأيّوبيّين، ووصلَ إلى لقاءِ صلاح الدّين، وأكثر من الكلام على قَضية الفرنجة (الصّليبيّن)، واستَتْبَعَ ذلك منه:

- دَحَ صلاح الدّين الأيوبي بمعانٍ كثيرة؛
- والحَضّ على استمرار الجهاد؛
- والتّبشير بتوالي انتصارات صلاح الدّين، **وبفتح القُدس**؛
- وارتقاء الآمال- المبيّنة على أُسس واضحة - إلى أنْ يلاحقَ صلاحُ الدين أولئك الغُزاة بعد طردهم من الشّام، وسائر أراضي المُسلمين **ليصل إلى القسطنطينية**، ويحقّق فتحها المأمول.
- والمشارُ إليه طبيبٌ حكيمٌ، نَظَمَ الشعْرَ، وأكْثَرَ من نظمه، وهو: **عبد المُنعم الجِلْياني**.

---

(١) قدسنا: ١٧٣ - ١٧٤.

الجِليَاني[1]

والجِلياني من العلماء الأُدباء الشعراء الأندلسيّين الّذين كان في آثارهم الأدبية صَدىً لأحداث المشرق، وقد تعلّقّ الجلياني بشخصية صلاح الدين: وهو طبيب أديبٌ أندلسي نزل إلى المشرق وجال في بلدان كثيرة في مصر والعراق والحجاز والشام واستقرّ في دمشق، وهو: أبو الفَضل عبد المُنعم (أو هو: أبو الفضل محمد عبد المنعم) بن عمر بن عبد الله الجلياني الغسّاني الأندلسي.

وجِلْيَانَةُ[2]: حصن بالأندلس من أعمال (وادي آش) أي هي تابعة لها، قال ياقوت: وهو حصن كثيرُ الفواكه، ويُقال لها: جليانة التفّاح لجلالة تُفّاحة وطيبة وريحه.. منها: عبد المُنعم بن عمر بن حَسّان الشاعر الأديب الطبيب.

وفي تَراجمه صفةٌ أُخْرى، وهي أَنه متصوّفٌ، وكان يُقال له: (حكيم الزّمان)، أقام في مصر مُدّة، وتَرَدّد على بيتِ

---

(١) ترجمته في فوات الوفيات ٢: ١٦، وطبقات الأطباء ٢: ١٥٧ ونفح الطيب ٢: ٦٥٠ ومعجم البلدان ٢: ١٥٧.

(٢) معجم البلدان ٢: ١٥٧.

المقدس. وأكثرُ إقامته كان في الشّام. انتقل إلى دمشق وأقام فيها، وكانت معيشته من الطبّ، كان يجلسُ على دكّان بعض العَطّارين. وهناكَ لقِيَهُ ياقوتُ الحموي، وقال ابن سعيد[1] إنه «استقرّ بالشّام وصار طبيب المارستان السّلطاني في السَّفر والحَضر أيام صلاح الدين بن أيّوب، وبعده.....».

– وكانت وفاة الجِلياني في دمشق سنة ٦٠٣.

وكان السُّلطان صلاح الدين الأيّوبيّ يحترمُ الجلياني، ويُجِلّه. ومن جهة أُخرى فإنّ لعبد المنعم الجِلياني قصائدَ كثيرة في مدحِ صلاح الدّين، وإطراءِ جهادِه، وقتالِه في العدوّ، والتبشيرِ بفتوحاتٍ له بعد فُتوحات.

ولكثرةِ أَشعارِه في صَلاح الدّين جاءتْ في دواوين متعدّدة[2] أَشهرها:

– المُدَبّجات، وهي عجيبة في أسلوبها وجداولها وترتيبها، أتمّها سنة ٥٦٨ وتسمّى مَنادح الممادح،

– و: روضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر.

وقال ياقوت في الجلياني، وشعره، وقد لقيه[3]:

---

(١) الغصون اليانعة: ١٠٥.

(٢) انفح الطيب ٢: ٦٥٤.

(٣) معجم البُلدان ٢: ١٥٧. يشير ياقوت إلى نمط من نظم الشعر يتشكل دوائر، وعلى هيئة أشجار وصور. ويتابع القارئ القصيدة على تلك الحال. وهو تفنن تابع لعلم البديع لكنْ فيه تكلف. وقد اشتهر منه نوع يدعى: المشجر.

«كان عجيباً في عمل الأشعار التي تقرأ الواحدة بعدّة قواف، ويُستخرج منها الرسائل والكلام الحكميّ مكتوباً في خلال الشعر، وكان يعمل من ذلك دوائر وأشجاراً وصوراً».

وقال في صفةِ عمله:

«سكن دمشق، وكانت معيشته من الطبّ، يجلس باللبّادين على دكّان بعض العطّارين. كذلك لقيتُهُ، ووقفني على أشياء ممّا ذكرتُه، وأنشدني لنفسه ما لم أضبطه عنه (لم يدوّنه) ومات بدمشق سنة ٦٠٣».

وختَم الإشارة إليه في ترجمة (جِلْيانة) من كتابه معجم البلدان بإنشادٍ، قال فيه:

«أنشدني السّديد عُمر بن يوسف القفصي قال أنشدني عبد المنعم الجِلياني لنفسه: [من الطويل]

وهل ثَمّ نَفْسٌ لا تميلُ إلـى الهـوى؟
مُحَالٌ! ولكنْ ثَم عَزْمٌ على الـصّبْرِ
سلالةُ هذا الخلقِ مـن ظَهْـرِ واحـدٍ
وللكلّ شربٌ من قُوى ذلك الظهـرِ

«وفي طرائف أخبار الجلياني الحكيم أن القاضي الفاضل الكاتب الوزير في خدمة صلاح الدين أراد أن يَغُضَّ منه فقال له بحضرة السلطان صلاح الدين الأيوبي: كم بين جليانة وغرناطة؟ فقال: مثل ما بين بيسان وبيت المقدس»!!

والموضوعُ في ظاهِره جغرافيٌّ، وفي حقيقته حضاريٌّ؛ أراد القاضي الفاضل أن يقول للجلياني أنت من قرية صغيرة، مغمور مثلها فأجابه بمثل ما ألغز إليه، وأشار إلى نسبة القاضي الفاضل الذي هو من بَيْسان. وفرقٌ بعيد في المكانة بين بيسان وبيت المقدس!

– ولعلّ هذا كان أحد أوجه إعجاب صلاح الدّين بالجلياني.

وهكذا كان شعر الجلياني في الجهاديّات والقُدْسيّات والمبشرات موصولاً بالأحداث: **قبل تحرير** القدس: تحميساً، ومواكبةً، ومشاركةً وجدانيّة، وتأييداً، وتذكيراً بواجب الجهاد؛ **وعند تحريرها** إظهاراً للفرحة بالنصر والتأييد، **وبعد تحريرها** لمواصلة الحرب ضدّ الفرنجة الذين ما زالت لهم دويلات وقوى متحرّكة برّاً وبحراً.

ويبدو أن الفترة الذهبية للتبشير بفتح القدس كانت بين عهد دولة نور الدين الشهيد ودولة صلاح الدين الأيوبي. ونشط الأدباء والشعراء والعلماء والكتاب في الإشارة إلى فتح القُدس، والتنبّؤ بتاريخه، ودقّ الطبول منذرةً العدو مبشرة العرب والمُسلمين. والتقى في هذا أهل المشرق (من فلسطين وغيرها) وأهل المغرب والأندلس. وإذا كنا لا نعلم على وجه الدقة البادئ بذلك من الشعراء: المشارقة أم الأندلسيون فإن تراث الأندلسيين الباقي يدل على حسن إسهامهم في ذلك، وبراعتهم، وكثرة نتاجهم، وعلوّ صوتهم.

ومن شعر عماد الدين الكاتب يحرّض صلاح الدين على الفتح والتحرير، ويرفع صوته بالتبشير؛ من قصيدةٍ أنشدها سنة ٥٧٠ هـ[١]:

---

(١) الروضتين ١: ٢٤٧.

[من المتقارب]

ويوم الفـرنج إذا مـالقوكَ ... عُبـوسٌ بـرغمهمُ قَمْطريـرُ

نُهوضاً إلى القـدس يـشفي ... بفتحِ الفُتوحِ ومـاذا يـضيرُ؟

سَلِ اللهَ تسهيلَ صعبِ الخطو... ...بِ فهو على كلِّ شيءٍ قـديرُ

وللشاعر نفسه يذكر ما ترك نور الدين الشهيد لصلاح الدين من مسؤوليات على رأسها هزيمة الفرنجة وطرد فُلولهم[1]:

[من الكامل]

أوَما وعدتَ القدس أنك منجزٌ ... ميعادَه في فتحِه وظهـورِه؟

فمتى تجيرُ القدسَ من دنسِ العـدا ... وتقدّسُ الرحمن في تطهيرِه؟

ونسج شعراء آخرون على هذا المنوال. وازدحمت هذه المدة بالشعراء والخطباء والعلماء: يذكرون القدس، ويبشرون بفتح بيت المقدس وسائر البلاد التي غزاها الفرنجة بأملٍ يحفظونه من تاريخهم وحضارتهم، وبتوسمٍ ظهر لهم من عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين، والقادة، وسائر جند الله الذين كانوا معهم.

فمن مبشّرات الجلياني، وما يتعلّق بها، ويليقُ بمناسبتها[2]:

---

(١) الروضتين ١: ٢٤٤.

(٢) ديوان المبشرات... ص٤٦.

[من الطويل]

فشؤمُ فريقِ الشِّرك في الـشّامِ طـائرٌ
فَقُصَّ جناحَيْهِ بأقصى القوى قَـصْما[1]
إذا صفِرْتَ من آلِ الاصْفرِ ساحةُ الـ
مُقَدّس ضاهتْ فتْحَ أُمّ القُرى قِـدْما
فذا المَسْجدُ الأقـصى وهمّتـكَ العُـلا
وعَزْمَتُكَ القُصْوى ورَمْيَتُكَ الصَّمّا[2]
وليسَ كفـتحِ القُـدْسِ مُنْيَـةُ قـادرٍ
وما إن تلقّاها سوى يوسفٍ جَزْمـا

فالفتح إن تَمّ، وتحرَّرت القُدْسُ والأَقْصى - وسيتم ذلك بإذن الله - كان ذلك تذكيراً، لأهميّته، بفتحِ مكة المُكرّمة وإنهاء الشِّركِ الذي هَيْمنَ في أوّل الإسلام عليها.

- **ويُبَشّر بأن يكونَ فَتْحُ القُدْسِ على يد صَلاحِ الدِّين**؛ ومن ذلك قولُ الجلياني من قصيدةٍ أُخْرى. وأَنْشَدَها بين يَدي السُّلطان[3]:

---

(١) جانسَ بين: قَصَّ وقصَم؛ وهما متقاربان لفظاً معنىً.

(٢) ورميتك القوية النافذة.

(٣) ديوان المبشرّات... ص٤٦.

[من البسيط]

الله أكبرُ أرضُ القدس قد صَفِرَتْ
مِنَ الِ الأصفر إذ حَيْنٌ بـه حَـانُوا
لهـم فلسطينُ إن يخـرجْ عـداتهمُ
عنها وإلاّ عَدَتْ بيضٌ وخُرْصـانُ[1]
حتى يبيـتَ رِتَـاجُ القُـدْسِ مُنفرجـاً
ويصعدُ الصَّخرةَ الغَرَّاءَ عُثْمـانُ[2]

ومن مبشّراته: نَظَرُه إلى تحريرِ فلسطين من أيدي الفرنج (الصلبيّين) ونَظرُهُ إلى ملاحقةِ صلاح الدين فلولَ أعدائِه إلى بلاد اليُونان ليسيطر عليها، قال[3]: [من الطويل]

أَرى الرَّايةَ الصَّفراء يَرْمي اصطفاقُها
بني أصْفَرٍ بالرَّاعفـاتِ اللّهـازمِ[4]
فتَـسبي فلـسطيناً وتجبـي جَزائـراً
وتملكُ من يونان أرْضَ الأَسـاحمِ[5]

---

(١) البيض: السيوف (صفة غالبة) والخُرْصان جمع الخُرص: الرّمح.
(٢) الرتاج: الباب العظيم.
(٣) كتاب: الرّوضتين٢: ١١٦.
(٤) اصطفقت الرايات: اهتزت بالريح أو بحركة حاملها. يكنّي عن الهجوم الشامل على الفرنج (وهم بنو الأصفر)، واللهاذم جمع اللّهذم: القاطع.
(٥) الأساحم جمع الأسحم، وهو الأسود.

وتعنُو لهـا الأمـلاكُ شَـرْقاً ومَغْربـاً

بذا حكمتْ حُذّاقُ أهـلِ المَلاحـمِ[1]

ومن ذلك تطلّع الشّاعر إلى عودة البَحْرِ المُتَوَسِّط بحراً عربيًّا إسلاميًّا مثلما كان من قَبْلُ، ونظره إلى صِقلّية التي كانت من قبل ولايةً إسلاميّةً[2]: [من البسيط]

تَغْزُو أساطيلُنا منها صِـقلّيةً فتذعرُ الرّومُ والصقْلابُ والخَزَرُ

وفي القصيدة نفسها استشرافٌ إلى رُومَة كبرى مدن إيطالية، ومقر البابوية:

وبعـضُ أبنائـه بالقُـدْسِ مُنْتَـدبٌ

وبعضُها رُومةُ الكبرى له وَطَـرُ[3]

برايةٍ تخـرقُ الأرضَ الكبيـرةَ فـي

جمعٍ تقولُ له الأَجْـسام: لا وَزَرُ[4]

والأمل – من الشاعر– ومن قلوب الناس معقودٌ على صلاحِ الدينِ وجُنْدِه **لافتتاح القُسطنطينية، وأَخْذِ (أيا صُوفْيا)**[5]:

---

(١) أهل الملاحم: الذين يذكرون ما يكون في آخر الزّمان.

(٢) ديوان المبشرّات: ١٣٩.

(٣) الوطر: الأَرب والطّلب. ونوّن (رومة) للشّعر.

(٤) الأرض الكبيرة: فرنسة، وما وراءها من أوربة.

(٥) آيا صوفيا: كنيسة ضخمة أنشأها جُوستنيان (بين ٥٣٢–٥٣٧) حوّلها العثمانيون إلى مسجد عظيم عند فتح القسطنطينية ١٤٥٣م مضيفين إليها أربع ثم مآذن حوّلها كمال أتاتورك سنة ١٩٣٥ إلى متحف (!!).

– والشعر في المبشرات : ١٠٠.

[من الطويل]

وأيْسوفيا تَرْجوك مثل قِيامــةٍ فذا الفتحُ يعلوُ العالمينَ جهارُهُ

وفي شعر عبد المُنعم الجلياني قصيدة يقول فيها[1]:

[من السريع]

مُلْــكُ صــلاح الــدّين؛ لا قُوّضَــتْ

أطْنَابَهُ، ملــكُ التُّقــى والــصَّلاحْ[2]

ســيرةُ عُــدْلٍ حَــسَّنَتْ عنــدنا

ما كان من وَجْــهِ اللّيــالي القِبــاحْ

ســافر فــي الــدُّنيا وأقطارهــا

ذكــرٌ غَــدا عنــهُ جمــيلاً وراحْ

.....

قــل لابــن أيــوب وكــم ناصــحٍ

أنْفَعُ ممّنْ هو شــاكِي الــسِّلاح![3]

حــارِبْ علــى مِثْــل نُجــومِ الــسَّما

فَمُلْكُ مِصْرٍ مــا عليــهِ اصــطلاحْ

---

(١) الرّوضتين ٢: ٨٠.

(٢) المراد بالملك: الدّولة.

(٣) قد يكون الناصح، عند اقتضاء النّصيحة، أكثر أهميّة من مُحارب.
– شاكي (مقلوب شائك) وفلان: شاكي السلاح: ذو شوكة وحدّة في سِلاحه.

قـــولا لمـــنْ فـــي عَزْمِـــه فَتْـــرَةٌ
ارجعْ إلى الجِـدّ وخَـلِّ المُـزاحْ[1]
فالقُـــــدْسُ قـــــد آذنَ إغلاقُـــــهُ
على يَـدَيْ يوسـفَ بالانفتـاحْ[2]

ويستطيع قارئ شعر الجلياني أن يرسمَ صورة صلاح الدّين كما صوَّرها الشّاعر؛ بين:

- جوانب شخصيّةٍ: من مواهبِه، ومزاياه الخاصة؛
- وجوانب سياسية: تَخُصّ آراءه في تدبير الأمور؛
- وجوانب إدارية: من حُسْن معاملة النّاس، والانتباه إلى قضاياهم صغيرة وكبيرة؛
- وجوانب عسكريّة: من التّأييد والظَّفر؛
- وجوانب عاطفيّة: من وصف مشاعر النّاس أولاً، وذكر عواطف الشّاعر نحو هذا المجاهد الكبير؛
- وإشارات تاريخية: كرَبْطِ الشّاعر بين صلاح الدين (يوسف) وبين يوسف (عليه السلام)، وقد دبّر النبيُّ الكريم شؤون مصر، وهذا سميّهُ يقتدي بأعماله:

---

(١) الفترة: الضعف والانكسار.
(٢) تبشير بفتح القُدس.

قال الجِلْيَانيّ في هذا[1]:

[من الطويل]

ونُبْتَ بمصرٍ عن سَميِّك يوسفٍ
كما نابَ عن سَكْبِ الحيَا واكفٌ سَكْبُ[2]
حَذوتَ على سَجْلَيْ نَداهُ وهَدْيِه
وإن كنتَ لا سِجْنٌ حواكَ ولا جُبُّ[3]
ووافَقْتَهُ في الصَّفحِ عن كلّ مذنبٍ
فما منك تثريبٌ وإنْ عَظُمَ الذّنْبُ![4]

ويلتقي ابن جُبير والجلياني في الثناء على صلاح الدين لِمَا أَسْداهُ إلى البلاد والعباد: بين عدالة في الحكم وما يتعلق بأمور النّاس، وجهاد في الفرنج لا يدّخر وُسْعاً ولا طاقة؛ وهكذا كان هذا الأمير الصّالح يحمل المسؤولية، ويخدمُ الناس، ويغارُ على الأمّة ودينها ومُقَدّساتها، ويضع تحرير القدس والأقصى هدَفاً أوّل يَتْبَعُه تَحْريرُ البلاد جميعاً، وإنقاذ العباد؛

---

(١) ديوان المبشرات: ٨٠.

(٢) الحيَا: المطر؛ والواكف: المطر المنهلّ. يقول: كنت يا صلاح الدين الحاكم الذي اقتدى بيوسف (عليه السلام) الذي دبّر أمور مصر وأنقذها من مشكلات اقتصادية وسياسيّة.

(٣) السجل في الأصل: الدلو، أو ملء الدّلو. والنّدى الجود، والهدي: الطريق الواضح المستقيم (يشبه به سياسية يوسف عليه السلام). يقول أنت اقتديت بما صنع سيدنا يوسف (عليه السلام). والكلام في الشطر الثاني على الجب الذي أنزل إليه، والسّجن الذي دخله.

(٤) إشارة إلى ما رواه القرآن الكريم من قصة [يوسف عليه السلام] من العفو عن إخوته.

قال الجلياني[1]:

[من البسيط]

أبو المُظَفّر مأوى كُلّ مُـضْطَهَد
بحلمه ونداهُ يُـضْرَبُ المَثَـلُ[2]
مهما يَمِلْ جائرٌ أو عائثٌ عَمِـهٌ
فعند عَدْلِ صلاحِ الدّين يعتـدلُ[3]
أحيا به اللهُ مصراً فهي ناشـرةٌ
وافتكّها من عدو ما بـه قِبَـلُ[4]
كم للفرنج بهـا وِرْداً ومُنْتجعـاً
ونارُهم حولَها تذكُو وتـشتعلُ[5]
فأطفأ الناصرُ المنصورُ جُـذوتهمْ
وأَدْبَرُوا بقلوب: شَهْمُها وَجِـلُ[6]

---

(١) الرَّوضتين ٢: ١١٥.

(٢) أبو المظفر: صلاح الدين.

(٣) عائث اسم فاعل من عاث: أفْسَد. وعَمِهٌ: من فعل عَمِهَ أي: تحيّر وتردّد.

(٤) القِبَل: الطاقة. وقوله (فهي ناشرة) أي: عادت إليها الحياة بإنقاذها من العُبَيْديين الفاطميين. والمعنى مجازي وأصله من: نَشَرَ الله الميت: أحياه وبعثه بعد الموت.

(٥) الورد: الماء الذي يُورد. والمنتجعُ: من انتجع القوم: ذهبوا لطلب الكلأ والعشب. يقول أقام الفرنجة ينعمون بما سيطروا عليه عُدواناً.

(٦) الجذوة: الجمرة الملتهبة. واستعملها الشاعر على المجاز.

مَلْكٌ تَقَلَّد سلكَ المُلـك مُنتظمـاً
وقال للمال:هذا منكَ لـي بَـدلُ!
ففرّق المالَ جمعاً للقُلـوب بـه
وحَسْبُهُ فيهمُ إدراكُ مـا سـألوا
إنّ الملوكَ الذينَ امتـدَّ أَمْـرُهُم
لم يَخْزُنُوا المالَ بل مَهْما حَوَوْا بذلوا[1]
كذا السّياسةُ فالأجنادُ لو علمـوا
بُخْلَ المليك وجاءَتْ شدّةٌ خَذلوا !

والتّبْشير بما يرجوه النّاس من الفتح، والنّصر على العدو الفرنجي كان عامّاً من شعراء المشرق، وشعراء الأندلس، ونقرأ في الأُنس الجليل:

«ومن الاتفاقات العجيبة أن مُحيي الدين[2] بن الزكيّ قاضي دمشق مَدح السُّلطان [صلاح الدين بن أيّوب] بقصيدة منها[3]:

---

(١) الحكّام الذين امتدّ حكمهم ورضي الناس عنهم هم أولئك الذين يبذلون من مال الأمّة لأبنائها.

(٢) محيي الدين بن الزكي، محمد بن علي عرف بابن زكي الدين الدمشقي (٥٥٠-٥٩٨) فقيه خطيب حسن الإنشاء يتصل نسبه بعثمان بن عفان (ﷺ) كانت له عند السلطان صلاح الدين منزلة رفيعة. تولى القضاء في حلب ودمشق. مولده ووفاته في مدينة دمشق (الأعلام ٦: ٢٨٠).

(٣) الأُنس الجليل بتاريخ القُدس والخليل ١: ٣١٧.

[من البسيط]

وفَتْحكُمْ حَلَباً بالسَّيف في صَفَرٍ
مُبَشّرٌ بفتوح القُدسِ في رَجَبِ

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاثٍ وثمانين [وخمس مئة]. وكان الأمر كما بشّر، واستَفْتَح.

وهنا كلامٌ ظريفٌ فقد قيل لابن الزكيّ: من أين لك هذا [التوقّع لما سيكون من فتح القُدس في رجب؟] فقال: أَخَذْتُهُ من تفسير ابن بَرّجان[1] في قوله تعالى:

﴿الم* غُلِبَتِ الرُّوم في الأَرضِ وَهُم من بَعدِ غَلَبِهم سيَغلِبُون* في بِضعِ سنين لِلَّهِ الأَمرُ من قَبلُ وَمِن بَعدُ وَيَومَئِذٍ يَفرَحُ المُؤمِنُونَ*﴾ [الروم: ١-٤].

وكان الإمامُ ابنُ بَرَّجان الأندلسي قد صنّف تفسيره المذكور في سنة عشرين وخمس مئة، وبيت المَقْدِس إذ ذاك في يد الإفرنج لعنهم الله تعالى وكان ابن برجان قد استخرج ذلك حتى حرَّره من قوله تعالى: (في بِضْعِ سِنِين) أي: استخرجه على طريقةٍ استنبطها هو.

---

(١) هو أبو الحكم عبد السّلام بن عبد الرحمن (ابن بَرّجان) اللّخمي الإشبيلي، مُتَصوّف «من مشاهير الصالحين» له: تفسير القرآن، مخطوط، لم يكمل (كذا في الأعلام)، وله كتاب في شرح أسماء الله الحسنى. وفاته سنة ٥٣٦ بمرّاكش.
- وظاهرٌ أن ابن الزكي اطلع عليه واستفاد منه.

الخَاتمَـة

المَسْجِدُ الأَقْـصى لـــه آيَـــةٌ سَارتْ، فصارَتْ مثَلاً ســائرا
إذا غَـــدا للكُفْـــرِ مُـــستَوطَنَاً أَنْ يَبْعَـــثَ اللهُ لـــهُ ناصِـــرا
ف: نَاصِـــرٌ ظُهُـــورهُ أوَّلاً و«ناصـــرٌ» ظُهُـــورُهُ آخِـــرَا

جمال الدين بن مطروح(*)

❖ جمال الدين يحيى بن عيسى بن مطروح (٥٩٢-٦٤٩) ولد بأسيوط وتوفي في القاهرة شاعر أديب له ديوان شعر مطبوع قضى مدّة في خدمة الصالح أيوب (من ملوك الأيّوبيّين) في مصر والشام وهو صاحب الشعر المشهور في لويس التاسع قائد الحملة الصليبية السادسة على مصر: «قل للفرنسيس إذا جئته ...»

- يقول الشاعر إنّ الأمّة التي أنجبت صلاح الدين محرّر القدس، تُنجب إن شاء الله، وبهمّة أبنائها «صلاحاً» آخر يحرّر القدس وسائر البلاد المحتلّة.. إنها أُمّة الجهاد الموعودة بإحدى الحسنيين

- ولقب صلاح الدين الآخر كان: الملك النّاصر لدين الله

يتمتّع بيت المقدس بمكانة خاصّة عند العرب والمُسلمين، فهو المسجدُ الثالث الذي تُشَدُّ إليه الرِّحال، وهو مهوى الأفئدة والقُلوب والنّفوس كلّما أصاب الأراضي الفلسطينيّة الشاميّة أمرٌ طارئ أو اقترب منها عدوّ غاصب، وهو محطّ الأنظار: كالذي كان عند طُروء الفرنجة (الصليبيّين) والمَغول، والذي نراه منذ التفكير اليهودي الصهيوني في العصر الحديث بفلسطين لاحتلالها مرّة أخرى.

والتفاف القُلوب والنُّفوس اليومَ لا يقلُّ عمّا كان عليه المُسلمون أيّام الصّليبيّين والمغول قديماً.

ولو تمّ جرْدُ ما في كُتب التّاريخ والأدب وغيرها للبحثِ في شأن أبناءِ الأقطار العربيّة والإسلاميّة الذين جاؤوا إلى القُدس وغيرها من مدن فلسطين على امتداد التّاريخ لتأكّد للباحث أنّ الأراضي المباركة كانت تستقبل الزّوار والمجاورين، وطلبة العلم، والمجاهدين، من أنحاء البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً.

ولقد لاحظتُ اهتماماً زائداً بحسب متابعاتي، ومَراجِعي، بدا من أهل الأندلس بفلسطين عامّة وببيت المقدس والخليل وسائر المدنِ والمَشاهد خاصّة على امتداد التّاريخ الأندلسي.

ولعل البدايات الأُولى للاهتمام- بعد الوجه الدّيني للتوجّه إلى فلسطين- هي صلاتُ القُرْبى بين الأندلسيّين الذين استقرّوا هناك، والصّلةُ الموصولة بين القبائل العربية التي استقرّت في فلسطين والشام، وأكثرهم يمنيّة، وبين عرب الأندلس الذين كانت اليمنيّة جمهرةً فيهم، وقد سُجّلت رحلات ورسائل مرسلة من الأندلسيين إلى ذويهم في الشام في القرن الهجري الثاني تدل على التّواصل

الذي كان مباشراً إلى أشخاص معينين وأسر معيّنة[1] ثم صار شعوراً عامّاً.

وقد أشار د. حسين مؤنس إلى هذا الإلف والأُنس الذي يستشعره الأندلسي، وهو يزور بلاد الشام: يُجاور في جانب منها، أو يقرّر البقاء فيها. وهو إلفٌ يرجعُ إلى حُسن معاملة أهل الشام – وفيها فلسطين– للمغاربة (وهي كلمةٌ تطلق على الأندلسيّين، وأهل المغرب، آنذاك) وتتردّد أصداءُ هذا الملْمَح في كتب الرّحلات المُدَوّنة كالذي نجده في رحلة أبي بكر بن العربيّ، وابن جُبَير الكناني، والحاج المُدَجّن: عبد الله بن الصّباح، الذي تجد في رحلته تفصيلات كثيرة عن حياة النّاس اليوميّة للمُقيم والغريب معاً.

ولا يستطيع أحد رصد حركة التنقّل اليوميّة التي تمّت بين بلاد الأندلس وبلاد الشّام، وفلسطين خاصّة. والأسماء التي نلتقطها من كتب التّاريخ والتّراجم والجغرافية وغيرها عدد يسير قليل. وإنّهم المحظوظون الذين ذكرهم التّاريخ وأبقى أسماءهم وهم في الوقت نفسه ممثّلون لأجيالهم وأوطانهم وبلداتهم وأحيائهم أيضاً.

كانت هناك حركة حياة، وحركة تجارة، وحركة علم طلباً له وتوصيلاً إلى الآخرين، واستزادة من الرّواية، واستفادة من لقاء العلماء؛ وهي حركة متبادلة فكم من تاجر وعالم وموسيقي وشاعر وبحّار ومغامر خرج من المشرق أيّام عزّ الدّولة الأموية الأندلسيّة،

---

(١) ينظر كتابنا: التقاليد الشّامية في الدّيار الأندلسيّة (طبع دار الفكر– دمشق) صدر سنة ٢٠١٠.

وقصد أولئك الخلفاء والحكّام في الجانب الغربيّ (الأوروبي) من الدّولة العربيّة الإسلامية، وخصوصاً: أمراء بني أمية وخلفاءهم.

ومن الطّريف أنّ اسم الأدوات الخزَفيّة في دمشق (عند الدّمشقيّين البلديّين) وفي الغُوطتين، ومواطن أُخرى في بلاد الشام هو: **المالقي**. وإن كان يقال لها أيضاً: الصّيني. والمالقي نسبة إلى مدينة (مالقة) من شرق الأندلس، وكانت، وما زالت، مشهورة بصناعة الأواني الفخّاريّة والخزفيّة... مضت قرون طويلة لم يأت فيها جلبُ المالقي الأندلسي، وبقي الاسمُ دلالةً على تلك الحركة الحياتيّة الاقتصادية، والثقافية أيضاً بين الأندلس وبين بلاد المسلمين إلى بلدان أخرى بعيدة.

ويلاحظ قارئ الأخبار المجموعة، والتّراجم الأندلسيّة ظهورَ عنصرِ **(القضية العلميّة)**. لقد أَظْهرت رحلاتُ الأندلسيين القيمة العلميّة الواسعة في بيت المقدس، وسجّلت للتّاريخ جانباً من تلك النهضة الكبيرة، ممّا أهمله المؤرّخون كالذي يلاحظه قارئ رحلة أبي بكر بن العربي، والذي يستنتجه قارئ تراجم الأندلسيّين الذي مَرّوا بالقدس، وبسائر مُدن فلسطين، وأخبار تلقّيهم عن علماء بيت المقدس، في القُدس، أو في دمشق، أو في غيرها من البلدان.

وكان في الأندلسيّين مَن رحل إلى المشرق أكثر من مرّة، على الرّغم من بُعد المَسافة، وشدّة المشقة، وأعباء السفر، وتكاليف الرّحلة المالية: يستهويهم الحجّ والعُمرة وزيارة القُدس. ويحدو بهم إلى ذلك طلب لقاء العلماء والاستزادة من الرّواية... ومن هؤلاء

الذين أكثروا من الرّحلة: ابنُ جُبير صاحب الرّحلات الثلاث. سَببُ الرحلة الثانية هو مَلْءُ النّظر والقلب والرّوح من دُخولِ القدس والصّلاة في المسجد الأقصى. والعيش في ظلال الأرض المباركة بعد تحريرها من الفرنجة على يد صلاح الدين.

وأسْهم الأندلسيّون في وصف الشّام عامة، وفلسطين خاصّة، وفي تسجيل وقائع وأحداث، وتوضيح صور ورُؤى، وذكر عادات وتقاليد، والتنبيه على خصائص الأُمّة المشتركة بين أدنى أرض العرب والمسلمين وأقصاها. إنّ هذه الرحلات المكتوبة المُدَوّنة سجّلت الكثير من ملامح روح الأمّة، وخاصة في أحوال الشدّة كالوقوف في وجه الهجوم الفرنجي الصليبي والهجوم المغولي التتري، وتعاون أبناء الأمّة على الجهاد، وعلى الاستمرار في الإبقاء على هويّة الأُمّة صحيحة سليمة ناصعة.

وكان للمغاربة والأندلسيّين، ولغيرهم أيضاً، مجاورةً في بيت المقدس، والتفافٌ حول المسجد الثالث الذي تُشَدُّ إليه الرّحال مع المسجدين الأَوّلين: في مكّة المُكرّمة والمدينة المنوّرة.

وهي مجاورةٌ متعدّدةُ الجَوانب تجمعُ الالتفافَ الرّوحي والنّفسي نحو التّعبّد والاستزادة من الخيرات الدّينية؛ إلى طلب العلم والجُلوس إلى العلماء أو بَثِّ العلم وإفادةَ طلابه؛ إلى المرابطة في سبيل الله مناصرةً للمجاهدين أيّام آل زنكي وآل أيّوب، وغيرهم. وقد سَجّل ابن جُبَير مشاركة فعّالة لأهل الأندلس والمغرب ضدّ الفرنجة (الصليبيّين).

وكان للأندلسيين مكانةٌ في بيت المقدس خاصّة، وذلك بتكليف أولي الأَمر: علماء، وفقهاء، من أهل الأندلس أعباء مناصب دينيَة من الخطبة والإمامة، القضاء، وصولاً إلى منصب قاضي القضاة.

وإذا كان هذا يفتح العين على وحدة الأمّة وتكافؤ أَبنائها في كُلّ مكان فيه سيادة عربية إسلامية فإنه يكشف عن خبرة هؤلاء الأندلسيّين وأهليّتهم العلميّة الإدارية، وثقافتهم العالية، ونزاهتهم.

وأسهم الشّعراء الأندلسيّون في التّعبير عن أحوال الحياة العامّة في الشرق، وفلسطين خاصّة. وكانوا صوتاً نقياً عالي النبرة في بث الحماسة لمواصلة جهاد العدوّ، ودحره، وإخراجه من البلاد العربية الإسلامية، وزاد بعضهم فطلبَ ملاحقتهم إلى عُقر دارهم. وقد التفت الجلياني الأندلسي (الحكيم الشّاعر) إلى القُسطنطينية، وسأل صلاح الدين أن يطرد الصليبيّين ويصل إليها فاتحاً في ظل الأَشعار القدسيات والمبشّرات.

وأشعار الأندلسيّين وتَرٌ في جُملة الأَوتار الشّجية العربية التي كانت في خدمة المجتمع، وفي موكب تحرير الأرض، ودَحْر العَدُوّ، واستعادة السّيادة، وبثّ الحماسة.

إن هذا البحث يُلقي الضّوء على جانب مهمّ في تاريخ الأمة وحياتها وحضارتها، فهي أمّة واحدة تحمل أعباءها حَمْلاً مشتركاً، ويستجيب طَرفٌ لطرف، وجانبٌ لجانب، ويتداعى سائرُ الجسدِ لكلّ شكوى من أيّ عضوٍ من أعضائه.....

هذه المَشَاعرُ الجيّاشةُ، وهذا التّفاعلُ، والتّكافلُ بين أطراف المجتمع بين شرق البلاد وغربها عَوَّضَ كثيراً عن أيّام الخَلل السّياسي، والتّقاطع بين ولايةٍ وأخرى، وبلدٍ وآخر.

وانظر – مثلاً– كيفَ استقبلَ أهلُ دمشق من العُلماء والخاصة والعامّة العالم الفقيه الأديب التّلمساني الشهير بـــ(المقّري)، وكيف التفّوا حوله يسألونه وهو المغربي اللّصيقُ بالأندلس والأندلسيّين أن يُحَاضرَ فيهم عن الأندلس وأن يؤلّف كتاباً عظيماً عن تلك البلاد، وعن أَحد أُدبائها وشعرائها لسان الدّين بن الخطيب. كان هذا بعد سُقوط الأندلس بزمان. صلة موصولة بين أطراف الأمّة وأَبنائها تتجاوز المكان وتتجاوز الزّمان.

وهذا الكتاب تذكارٌ لما كان بين الأندلس والقدس أو بين الأَندلس وسائر بلدان فلسطين، وتبيانٌ لوحدة الأمّة بين أطرافها، وولاياتها، وبُلدانها، ولحريّة العيش في البلاد العربية الإسلاميّة، والتمتع بالمواطنة الكاملة في كلّ مكان فيه سيادة للدّولة والأمّة؛ **وهو تسجيلٌ لما تحمله أفئدةُ العرب والمُسلمين لبيت المقدس خاصّة، ولفلسطين عامّة من مشاعر الحُبّ والوفاء والوَلاء، والارتباط الديني والعاطفي والسياسي.** وهو جزءٌ من حركة الفكر والقَول والعمل لاسترداد ما ضاع من أرض فلسطين وسائر ما وقع تحتَ يَدي العدوّ الدَّخيل الذي جَدّد مآسي الفرنجة الصليبيّين بأساليبَ جديدة لا تقلّ وحشيّةً ودَمويّةً عن أسلافهم.

وهو ابتسامةُ المحارب المُتفائل بغد يأتي بالنّصر، فَتُحَرّر الأَرض، ويَغيب العدوّ الغاصب بكلّ ما تعنيه كلمةُ الغياب من

مقاصد ومَعان، وهي ابتسامةُ صاحبِ الأَمل الموعود بإحدى الحُسنيين، النّصر أو الشهادة.

وهو صدىً – على قَدْر ما استطاعت المصادرُ والمَراجعِ الباقية أن تُوضح – للأَحوال المُشتركة بين القُطرين، وخُصوصاً تعرّضهما معاً، وفي أوقات متقاربة للهجمةِ الفرنجيّةِ (التي سمّاها أصحابُها صليبيّة)، ولطول المجاهدة والفداء، وتقديم الشّهداء، والمُدافعة عن الأراضي والمُدن والقُرى، وسائر ما يجبُ الدّفاع عنه، وحمايته، ورفع الرّاية العربية الإسلامية فوقه...

وهو كتابٌ يبشر- أيضاً- بأن تحرير فلسطين، والقدس والأقصى هو اليوم القلب في قضايا الأمّة على كثرتها، وسيتمّ هذا التحرير كما تمّ تحريرها من قبل... لا بد من المُعاناة والشهداء... نعم.. ولكنّ النّصر آتٍ بإذن الله...

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

المصادر والمراجع

- أبو البقاء الرندي- د. محمد رضوان الداية ط٣- دار سعد الدّين- دمشق-.
- أبو بكر الطرطوشي- د. جمال الدين الشيّال- سلسلة أعلام العرب- القاهرة.
- الإحاطة في أخبار غرناطة - لسان الدين بن الخطيب - تحقيق محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي القاهرة (ع ج).
- أحكام القرآن- القاضي أبو بكر بن العربي- تحقيق علي محمد البجاوي- دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٥٧-١٩٥٨م.
- أزهار الرياض في أخبار عياض - المقرّي التّلمساني -- مجموعة من المحقّقين - المعهد الخليفي للأبحاث المغربيّة ١٩٣٩-١٩٤٢م - القاهرة
- الأعلام - خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - (٨ أجزاء).
- أنساب الأخيار وتذكرة الأخبار - رحلة المدجّن الحاج عبد الله بن الصباح الأندلسي - تحقيق الدكتور محمد بنشريفة - المغرب.
- الأنس الجليل بتاريخ القُدس والخليل - قاضي القضاة مُجير الدّين الحنبلي - النجف -- المطبعة الحيدرية ١٣٨٨-١٩٦٨.
- بدائع السّلك في طبائع الملك - تأليف قاضي الجماعة أبي عبد الله ابن الأزرق الغرناطي تحقيق الدكتور علي سامي النشار - بغداد - وزارة الإعلام.
- برنامج التّجيبي - تحقيق عبد الحفيظ منصور الدار العربية للكتاب - طرابلس -- ١٩٨١.
- تاريخ الأدب الجغرافي- كراتشكوفسكي- ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم- القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣-١٩٦٥.
- تاريخ الأدب العربي- الأندلس- د. شوقي ضيف -- دار المعارف -- القاهرة.
- تاريخ الجغرافية والجغرافيين- د. حسين مؤنس- مكتبة مدبولي- القاهرة ١٤٠٦هـ-١٩٨٦.

- تاريخ افتتاح الأندلس – ابن القوطية– عبد الله أنيس الطبّاع – دار النشر للجامعيّين ١٩٥٧– بيروت.
- تاريخ الحروب الصليبية – ستيفن رينسمان – ترجمة السيد الباز العربي – ط٣– ١٩٨٣، ١٩٩٣م.
- تاريخ الشعوب الإسلامية – كارل بركلهان – ترجمة د. نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي– دار العلم للملايين – بيروت ط٢.
- تاريخ العُلماء والرّواة – ابن الفرضي– دار الكتاب اللّبناني – بيروت ١٩٨٣م – ١٩٨٤م.
- تاريخ فلسطين السّياسي – د. فاروق عمر– أبوظبي – مؤسسة الإتحاد ط١– ١٩٨٣م.
- تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن.
- التقاليد الشّاميّة في الديّار الأندلسية – محمد رضوان الداية – دار الفكر – دمشق– ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.
- التكملة لكتاب الصلة – ابن الأبّار – بعناية عزة العطار الحسيني – مكتبة الخانجي ومكتبة المثنى – القاهرة ١٩٥٥.
- تكملة المعاجم العربيّة – دوزي (الترجمة العربية) ترجمة محمد سليم النعيمي– بغداد – وزارة الإعلام ١٩٧٨–٢٠٠٠.
- الجامع لأحكام القرآن– الإمام القرطبي– دار الكتب المصرية– القاهرة.
- جُذوة المقتبس – الحميدي – دار الكتاب المصري – القاهرة – ط٢ ١٩٨٩م.
- جمهرة أنساب العرب – الإمام ابن حزم القُرطبي –عبد السّلام هارون – دار المعارف .
- القاهرة – ١٩٧١.
- الحُلّة السيراء – ابن الأبار – تحقيق د. حسين مؤنس – الشركة العربية للطباعة والنشر – القاهرة –١٩٦٣.
- الحوادث والبدع – الإمام الطّرطوشي – دارَ الأصفهاني للطباعة – جدة – ١٩٧٥.

- دراسة في الرّحالة ابن جبير الأندلسي -- د. إحسان عباس -- دار الغرب الإسلامي بيروت ٢٠٠١م.
- الدّعاء المأثور وآدابه – الإمام أبو بكر الطرطوشي -- دار الفكر – دمشق -- الطبعة الثانية.
- دولة الإسلام في الأندلس – (أجزاء السلسلة) – محمد عبد الله عنان – مكتبة الخانجي – القاهرة.
- ديوان المبشّرات والقُدسيات – جمع وتحقيق ودراسة عبد الجليل حسن – دار البشير للنشر والتوزيع – عمان – ١٩٨٩.
- الذيّل على الرّوضتين: أبو شامة – عن نشرة عزة العطار – القاهرة – ١٩٤٧.
- ذيل مرآة الزّمان – قطب الدين اليونيني– حيدر آباد – مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة ١٩٥٤–١٩٥٥.
- الذيل والتكملة– ابن عبد الملك المراكشي (أجزاء متفرقة) تحقيق د. إحسان عباس، ود. محمد بن شريفة – دار الثقافة – بيروت.
- رجال الحكم والإدارة في فلسطين – أحمد سامح الخالدي – المطبعة العصرية – القدس.
- الرّحلات – د. شوقي ضيف – سلسلة فُنون الأدب العربيّ– دار المعارف – القاهرة.
- رحلة ابن بطوطة – دار صادر – بيروت – ١٩٥٩.
- رحلة أبي بكر ابن العربيّ إلى المشرق كما صوّرها قانون التأويل – د. إحسان عباس– من مجلّة الأبحاث المجلد ٢١ الأجزاء: ٤/٣/٢ كانون الأول ١٩٦٨.
- رحلة الأندلس د. حسين مؤنس – الشركة العربية للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٦٤.
- رحلة بنيامين التُطيلي النّباري – نشره المجمع الثقافي -- أبوظبي.

- رحلة القلصادي - تحقيق محمد أبو الأجفان - الشركة التونسية للتوزيع - تونس - ١٩٧٨.
- روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام - سعيدة العلمي - كلية الدّعوة - طرابلس ١٩٩٩.
- الرّوضتين- أبو شامة - تحقيق محمد حلمي محمد أحمد - القاهرة الثقافة - القاهرة ١٩٥٦.
- الروض المعطار في خبر الأقطار - الحميري - تحقيق د. إحسان عباس- مكتبة لبنان بيروت ١٩٧٥.
- سفارة سياسيّة من غرناطة إلى القاهرة - د. عبد العزيز الأهواني - فصلة من مجلة كلية الآداب القاهرة - المجلد ١٦ الجزء١ ص٩٥-١٢١.
- سنا البرق الشامي: اختصار قوام الدين الفتح بن علي البنداري - تحقيق د. رمضان ششن استانبول ١٤٢٥/١٠٠٤م مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية.
- شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب - ابن العماد الحنبلي - مكتبة القدسي - القاهرة ١٩٣١
- شعر ابن جبير = دراسة في الرحالة ابن جبير.
- شعر الجهاد في عصر الموحّدين- شفيق الرقب - مكتبة الأقصى - عمّان ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- صلة الصلة لابن الزبير (ج٤،٣،٥) تحقيق د. عبد السلام الهرّاس وسعيد أعراب - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب - ط١ - ١٩٩٣-١٩٩٥.
- الضوء اللامع- السّخاوي- مكتبة القُدسي - القاهرة - ١٩٣٤-١٩٣٦.
- الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد - لأبي الفضل جعفر الأدفوي - الهيئة العامة المصرية للكتاب ٢٠٠١م.
- عصر سلاطين المماليك - محمود رزق سليم - القاهرة - الطبعة الثانية.
- عُقبى الظالمين - محمد رضوان الداية - (قيد الطباعة).

- على أبواب القدس – د. عدنان النحوي – دار النحوي للنشر والتوزيع – الرياض – ١٤١٣، ١٩٩٣ – ط٢.
- في الأدب الأندلسي – محمد رضوان الداية – دار الفكر – دمشق – ٢٠٠٩ (الطبعة الرابعة).
- قانون التأويل – القاضي أبو بكر بن العربيّ– تحقيق محمد السليماني– دار الغرب الإسلامي– بيروت – ١٩٩٠ – ط٢.
- قدسنا: محمود العابدي – معهد البحوث والدّراسات العربية – قسم البحوث والدراسات الفلسطينية ١٠٧٢.
- الكامل في التاريخ – ابن الأثير– دار صادر – بيروت ١٩٦٥–١٩٧٥.
- الكواكب السّائرة بأعيان المئة العاشرة – تحقيق جبرائيل جبّور– نشر محمد أمين دمج – بيروت– ١٩٦٠.
- متن اللغة (معجم) – أحمد رضا.
- معجم البلدان – ياقوت – دار صادر– بيروت (مصوّرة عن الطبعة الأولى).
- معجم الكنايات المعاصرة – محمد رضوان الداية – (تحت الطباعة).
- المعيار المعرّب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب – أبو العبّاس الونشريسي – دار الغرب الإسلامي – ١٩٨١– بيروت.
- المغرب في حُلى المغرب – ابن سعيد الأندلسي – تحقيق د. شوقي ضيف – دار المعارف مصر – ط٢–١٩٦٤.
- موسوعة القدس والمسجد الأقصى المبارك – حسن علي مصطفى خاطر– القدس المجلس العلمي الفلسطيني ٢٠٤٤.
- موسوعة المورد – دار العلم للملايين – بيروت.
- نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزّمان – لابن الأحمر – تقديم وتحقيق محمد رضوان الداية – دار الثقافة بيروت – ١٩٦٥.
- نفح الطّيب – المقّري– تحقيق د. إحسان عباس – دار صادر – بيروت.

http://al-maktabeh.com

فهرس

الصفحة

الإهداء ٥
مدخل ٧
١- تصدير ٩
٢- هذا الكتاب ١٣
٣- إلى ثالث الحرمين الشريفين ١٧
الفصل الأول: بَيت المقدس في وجدان الأمة ٢٣
١- القدس مدينة عربية ٢٥
٢- قبل الفتح الإسلامي لبيت المقدس ٢٧
٣- القدس والإسلام ٣١
٤- العرب في فلسطين ٣٦
٥- من قرطبة إلى القدس ٤٣
٦- حركة حيوية بين القطرين: الأندلسي والفلسطيني. ... ٥٧
٧- استهداف مشترك.... ووجدان واحد ٦٦
الفصل الثاني: في رحاب الأقصى والأراضي المباركة ٧٥
١- أندلسيّون قاصدون إلى بيت المقدس ٧٧
٢- المجاورة والمجاورون في بيت المقدس ٩٠
٣- مناصب متعدّدة للأندلسيّين في القدس ٩٨
٤- الاستنجاد والاستغاثة ١٠٤
٥- في القدس : حارة المغاربة ١١٥

الصفحة

الفصل الثالث: رحلات الأندلسيين المدونة إلى القدس والأقصى ١٢٧
١- رحلة أبي بكر بن العربي ١٢٩
٢- رحلات ابن جبير الكناني ١٤٤
٣- رحلة الحاج عبد الله بن الصباح المُدَجّن..... ١٥٦
٤- رحلة مغربية معاصرة لرحلتي: البلوي، والمدجن
- ابن بطوطة..... ١٧٩
٥- رحلة القَلَصادي ١٨٢
٦- النفحات الأندلسية الأخيرة في بيت المقدس ١٨٤
٧- تذييل: رحلة بنيامين التُطيلي ١٨٨
الفصل الرابع: الشعر الأندلسي في بيت المقدس..... ١٩٣
١- شعراء الأندلس وصلاح الدين
(ابن جبير الكناني والجلياني الغسّاني)..... ١٩٤
- ابن جبير الكناني ١٩٤
٢- القدسيات، والمبشرات الأندلسية ٢٠٨
- الجلياني الغساني. ٢١٢
الخاتمة ٢٢٦
المصادر والمراجع ٢٣٤

الطبعة الأولى / ٢٠١١
عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة

آفاق ثقافية

يُلقي هذا الكتاب الضّوء على جانب مهمّ في تاريخ الأمة وحياتها وحضارتها، فهي أمّة واحدة تحمل أعباءها حَمْلاً مشتركاً، ويستجيب طَرفٌ لطرفٍ، وجانبٌ لجانبٍ، ويتداعى سائرُ الجسدِ لكلّ شكوى من أيّ عضوٍ من أعضائه..

هذه المَشَاعِرُ الجَيّاشةُ، وهذا التّفاعلُ، والتّكافلُ بين أطراف المجتمع بين شرق البلاد وغربها عَوَّضَ كثيراً عن أيّام الخَلل السّياسي، والتّقاطع بين ولايةٍ وأخرى، وبلدٍ وآخر.

وهذا الكتاب تذكارٌ لما كان بين الأندلس والقدس أو بين الأندلس وسائر بلدان فلسطين، وتبيانٌ لوحدة الأمّة بين أطرافها، وولاياتها، وبُلدانها، ولحريّة العيش في البلاد العربية الإسلاميّة، والتمتع بالمواطنة الكاملة في كلّ مكان فيه سيادة للدّولة والأمّة؛ وهو تسجيلٌ لما تحمله أفئدةُ العربِ والمُسلمين لبيتِ المقدس خاصّة، ولفلسطين عامّة من مشاعر الحُبّ والوفاء والوَلاء، والارتباط الديني والعاطفي والسياسي. وهو جزءٌ من حركة الفكر والقَوْلِ والعمل لاسترداد ما ضاع من أرض فلسطين وسائرِ ما وقع تحتَ يَدي العدوّ الصهيوني الذي جَدّد مآسي الحروب الصليبية بأساليبَ جديدة لا تقلّ وحشيّةً ودَمويّةً.

مطبعة الهيئة العامة السورية للكتاب
www.syrbook.gov.sy
٢٠١١

السعر (٥٠) ل.س